مدارسة
القرآن الكريم

﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ
هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

مدارسة سورة البقرة
دراسة إجمالية

مع الأستاذة

أناهيد بنت عيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

– هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

– الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

مدارسة سورة البقرة

"دارسة إجماليّة"

أ. أناهيد بنت عيد السميري

"الجزء الثّالث"

اللّقاء الحادي عشر: الخميس ١٤ ربيع الأوّل ١٤٤٠ هـ

"تابع مدارسة المقصد الثّاني (٤٠_١٦٢)"

بسم الله الرّحمن الرّحيم

"مقدّمة"

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كنّا انتهينا من أسباب قطع الطّمع، وابتدأنا بعد ذلك في الشّبه، أو في الحال الّتي كان عليها اليهود المعاصرون مع النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- حيث أنّ أوّل فعل كانوا يفعلونه، وكانوا حريصين على نشره وإبدائه **هو**: ربط الهداية باليهوديّة أو النّصرانيّة، وأتاهم الجواب. ما هو الجواب؟

أنت الآن ستهتمّين بكلمة **الهداية**؛ لأنّهم شبهتهم: إنّ الهداية إنّما هي لليهوديّة والنّصرانيّة. إذًا الرّد عليهم: {فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ} **أي** إنّ الهداية لا تُنسب للأعراق، ولا للأجناس، ولا للأماكن، إنّما تنسب للاعتقادات والأفعال الموافقة لما أتت به الشّريعة.

ذكرنا إنّ اليهود عندهم عشرون سببًا يمنعهم من الإيمان!

وما داموا لن يؤمنوا! إذًا سيتفرّغون للمسلمين بأن يلقوا عليهم الشّبه من أجل أن لا يحصل من المؤمنين الإيمان، أو الثّبات على الإيمان، كأنّ عندهم هدفين:

الهدف الأوّل: يرمون بهذا الكلام على ضِعاف الإيمان فيهتزّوا!

الهدف الثّاني: يشوّشون المسلمين فينشغلوا!

والآن في الواقع، كلّ الشّبه الّتي تدور حولنا تحقّق هذان الهدفان، هناك ضعاف من المسلمين، تقع الشّبه في قلوبهم فتُذهب إيمانهم. وحتّى طلبة العلم الكبار، تأتي الشّبه تشغلهم، تجعلهم مضطرّين أن يردّوا عليها، وإلّا فكان أولى في هذا الوقت أن يعلّموا النّاس الإيمان!

فهذا هو العدوّ حين يريد أن يشتّتك، يأتي إلى ضعافك يرميهم بسهام فيقتلهم، ويأتي لأقويائك يشغلهم بمعالجة الضّعفاء، وبذلك يتعطّل المجتمع! ولا تكون هناك دعوة إلى الله، ولا يصير هناك إيمان، ولا زيادة يقين! ولذلك شُرع الجهاد بنوعيه:

١. **الجهاد الّذي هو جهاد العلم.**

٢. **جهاد السّيف:** وجهاد السّيف ليس جهاد دفع فقط، حين يهاجموننا ندفعهم، لا، وإنّما هناك نوع آخر من الجهاد **وهو:** الجهاد الّذي تُفتح فيه الدّيار، الّذي يسلم؛ يسلم منهم، والّذي لا يسلم منهم تكون عليه الجزية؛ لأجل أن تكون لنا اليد العليا عليهم؛ لأجل أن لا يتسلّطوا علينا؛ لأنّه إمّا أن نتسلّط نحن عليهم، أو أن يتسلّطوا هم علينا؛ فإذا صار المسلمون هم المتسلّطون عليهم، فُتحت الدّيار، كلّ الّذي صار أنّه لا يوجد أحد يمنع النّاس من الإسلام؛ هذا مقصود الجهاد، فالّذي يريد أن يُسلم، يُسلم، والّذي لا يريد أن يُسلم فإنّه يكفي المسلمين شرّهم؛ لأن السّلطة العليا للمسلمين، لكن ما الّذي يصير الآن؟ لا جهاد في العلم -إلّا فيما ندر أو قلّ- وطبعًا الجهاد الثّاني انتهى أمره!

فالمقصد الآن: أنّه إذَا ما وُجد الجهاد بالسّيف -بالطّريقة الشّرعيّة، لا تغرّكم هذه الطّرق الموجودة الغير شرعيّة؛ هذه غالبها إذَا لم تكن كلّها طرق غير شرعيّة للجهاد!- فلابدّ أن يكون هناك جهاد بالعلم، لابدّ أن تنظروا للعلم على أساس أنّه جهاد؛ وليس المقصود بالعلم أن تكوني مستلقية على فراشك تتعلّمي! أو قبل أن تغمضي عينيك تقرئي كلمة! فهذه ثقافة القراءة، أو هواية، ما لها أبدًا علاقة بما نحن نقوم به، **يعني:** إذَا كانت القراءة عند أهلها هواية؛ فالقراءة عند أهل الإسلام نوع من أنواع الجهاد، تجاهدين في سبيل الله، وتبدئين في الجهاد بجهاد نفسك، ثمّ الّذين أنت مسؤولة عنهم.

انتهينا من هذه الشّبهة، الّتي هي شبهة الهداية.

سننتقل إلى الشّبهة الثّانية؛ الّتي هي أكثر خطرًا على المسلمين، وقد كانت بسبب استغلالهم لحادثة حصلت، **وهي:** حادثة تحويل القبلة.

حادثة تحويل القبلة لها شأن عظيم! وحصول هذه الحادثة إنّما كان تفضّل من الله على المؤمنين بإعادتهم إلى البيت الحرام، هم كانوا على ملّة إبراهيم، وهذا البيت الحرام الّذي بناه إبراهيم.

وأيضًا حادثة تحويل القبلة حادثة عظيمة من جهة كونها كانت اختبارًا للإيمان، ونجح الصّحابة الكرام في الإيمان؛ حتّى أنّهم كما يروى عن حدث تحويل القبلة كانوا يصلّون العصر في **"مسجد القبلتين"** مستقبلين بيت المقدس، وهم في صلاتهم أخبروا أنّ القبلة تحوّلت، فتحوّلوا ركوعًا إلى البيت الحرام؛ فهذا كان ممّا يُشاد به في حقّ الصّحابة؛ ولذلك فإنّه كما ورد في بعض الآثار: (هَذَانِ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ)[١] أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بعد الأنبياء، يعني: هؤلاء الأصحاب الكرام، منزلتهم تأتي مباشرة بعد الأنبياء.

وقد ورد في فضل أبي بكر رضي الله عنه، أنّه أوّل من يدخل الجنّة بعد الأنبياء، وبرز مكانهم هذا في هذه المواقف الصّعاب! وأشهر موقف لأبي بكر الّذي من ورائه سُمّي الصّدّيق؛ **هو**: الإسراء والمعراج، وقد كان هو المميّز في الإسراء والمعراج.

حادثة القبلة: دلّت على أنّه ليس شخص أو شخصين من يستجيب للرّسول، لا، إنّها أمّة، وهذا كلّه مجد يسبّب العزّة، لابدّ من معرفته ونشره، وعدم الاستجابة للقطع الحاصل بيننا وبينهم، وإذَا أمرنا ربّنا في القرآن بذكر الأنبياء، وكان كما في سورة مريم وغيرها من النّصوص الدّالّة على أنّ ذكر الأنبياء من ذكر الله؛ فإنّ ذكر الصّحابة الكرام من ذكر رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– فالمفترض أن تكون علاقتنا بأصحابه –صلّى الله عليه وسلّم– علاقة شرف وانتماء وحبّ، و(الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)[٢].

ونحن مشكلتنا في الحبّ: أنّنا نحبّ على السّماع، فإذَا أكثرت من سماع أخبار هؤلاء؛ لابدّ أن يقع في قلبك محبّتهم؛ ولذَا فإنّ الله –عزّ وجلّ– علّمنا عن نفسه –سبحانه وتعالى– أسماءه وصفاته، والّذي فهمها وعرفها سيقع في نفسه محبّته سبحانه وتعالى. وحُفظت سيرة الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– وصحابته، والّذي سيتعلّمها ويفهمها؛ سيحبّ النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– وأصحابه. أمّا أن تترك قلبك فارغًا لا يدري من يحبّ؟! أو من لا يحبّ! وبعد ذلك تصلين إلى يوم القيامة، فتجدي الّذين فازوا بالمراتب العُلا، اجتمعوا مع الأنبياء والمرسلين، والصّحابة الكرام، الّذين أحبّوهم؛ وأنتِ بعيدة لأنّك ما شغلتِ قلبك في الدّنيا بمحبّتهم! والله إنّه الخسران العظيم! أنت لم يُطلب منك مع الصّحابة الكرام، أن تسعى إليهم، ولا تحفل، ولا تمشي، ولا تفعل أيّ فعل، غير أنّك تتعلّم عنهم وتحبّهم! وبعد ذلك **يُقال لك**: إذَا أحببتهم كنت معهم، فكيف إذَا كنت مع أبو بكر وعمر؟! كيف يكون حالك؟! لكن هذا هو الخسران العظيم! أن تكون مشاعرنا مبذولة في أيّ موطن! ولا نشعر بأنّ ربّنا خلق هذه المشاعر لأجل أن نصل إليه –سبحانه وتعالى– ثمّ إنّنا نصل إليه بأيسر ما يكون! لكن نأخذ مشاعرنا ونجعلها سببًا للعذاب؛ لأنّنا نبحث ونبحث عن أشياء، ونحبّ أشخاصًا، ويعذّبوننا، ونعذّبهم، وحبّ هؤلاء الصّحابة

(١) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١٤٦).

(٢) أخرجه البخاريّ (٥٧٢٩).

الكرام، ومَن هم أفضل منهم من الأنبياء والمرسلين قُربة إلى ربّ العالمين وراحة للنّفس وعزّة، وشؤون كثيرة لا يمكن حصرها.

لكن المهمّ كلّما جاءت حادثة تحويل القبلة؛ كما سنفكّر في هؤلاء اليهود الماكرين، والمنافقين الّذين معهم، سنفكّر في المؤمنين المتّقين أصحاب الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم.

وكلّ من لديه قدرة على صناعة برامج أيّا كانت فليجعل للأصحاب الكرام نصيب الأسد من الموضوع،

ولا تقرئي عن الأصحاب من الكتب الّتي حكت طرفًا من قصصهم وإنّما ارجعي لأصول الكلام، ارجعي للكتب الأساسيّة في الخبر عن الصّحابة؛ من أجل أن تتصوّريهم كما ينبغي؛ لأنّ الكاتب الحديث المعاصر اليوم، يعطيك آخر شيء وصل إليه. لكنّ المشاعر لا تتحرّك بمثل هذا، وهذا لا يمنع أن تقرئي للمعاصرين **مثل**: سلسلة "**صور من حياة الصّحابة**"[1] هذا من أحسن ما كتبه المعاصرون، لكن مع ذلك ارجعي للكتب الأساسيّة: ابتداء من "**صحيح البخاري**"، و"**صحيح مسلم**" لأنّك ستجدين أبا هريرة مع الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- ومعاذ بن جبل مع الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وعمر مع الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وأبو بكر مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم؛ ولذلك عقد "**البخاري**" مثلا كتابًا اسمه: "**مناقب الصّحابة**" إلى أن تصلي إلى "**سير أعلام النّبلاء**" للإمام الذّهبيّ .

مدارسة الآيات (١٤٢: ١٤٥)

يقول الله عزّ وجلّ: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}.

(١) حمّل من هنا كتاب صور من حياة الصحابة _ عبد الرحمن رأفت الباشا.

سنبدأ بالآية (١٤٢) وهذه الآية فيها من الخبر عن الغيب ما فيها؛ **انظري**: "السّين" والفعل، يدلّان على أمر مستقبل، **وهو**: أنّهم سيقولون هذا الكلام، ثمّ وُصفوا بأنّهم: {السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}.

ماذا سيقول هؤلاء؟ {مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} إذًا هذا الأمر لو فهمناه على ظاهره خصوصًا في سياق الكلام عن اليهود سيكون **معناه**: أنّ القبلة ستتحوّل، و{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ} من هؤلاء: {مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ} **أي** يُخبر النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وصحابته الكرام قبل أن ينزل الحدث بما سيكون؛ وبذلك يصير هناك بشارة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فهذا هو الفهم المشهور من الآية.

وهناك فهم آخر: أنّ القائل هنا سيكون الكفّار، يعني: لمّا تحوّل النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وتوجّه إلى بيت المقدس في المدينة، حال تحوّله قال الله -عزّ وجلّ- لرسوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا}.

إذًا من هم {السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}؟ عندنا احتمالين:

الاحتمال الأوّل: اليهود، والمنافقين.

الاحتمال الثّاني: الكفّار المشركون.

دعونا نفكّر أوّلًا: كيف صارت مسألة تحويل القبلة؟ في رواية أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كان يصلّي في مكّة يستقبل الكعبة، ومن ثمّ فإنّه كان يصلّي في كلّ الجهات. ولمّا ذهب إلى المدينة؛ أمره الله أن يستقبل بيت المقدس.

وفي رواية أخرى: أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كان يستقبل بيت المقدس وهو في مكّة، فيضع بينه وبين بيت المقدس الكعبة.

هل رأيتم مكان المؤذّنين؟ هذا المكان، في هذه الجهة بحيث تصبح الشّام أمامه يستقبلها، والكعبة في الوسط، بحيث أنّ القبلة تصير بيت المقدس، والكعبة في الوسط تشريفًا للكعبة.

صارا قولين، **سنركّب عليهما الآية الآن**:

- لو أنّه كان يصلّي في مكّة قبلته الكعبة؛ إذًا يصلح **أن** يكون الكفّار هم الّذين يقولون:{مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ} لأنّه كان في المدينة يصلّي على قبلة غير الّتي كان يصلّي عليها في مكّة؛ فمن الّذي سينتقده؟ الكفّار.
- لو كان من مكّة يصلّي إلى بيت المقدس، ويأتي للمدينة فيؤمر بأن يتحوّل إلى الكعبة، سيكون القائل: اليهود.

ولذلك تستعجبين من التّعبير القرآني المحتمل! لأنّه {سَيَقُولُ} من؟ {السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}؛ فـ{السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ} تشمل كلّ الّذي يعترض على القبلة، إذَا كان الكفّار هم الّذين اعترضوا، أو اليهود هم مَن اعترضوا!

على كلّ حال، لأيّ أحد سيعترض على مسألة القبلة؛ هناك جواب بدون مناقشة، جواب فيه عزّة. ما هو وجه العزّة؟ أنّ الملك العزيز يقول لهم: لا علاقة لكم، صلّى النّبيّ إلى بيت المقدس، أو صلّى للكعبة؛ لله الّذي يأمره {ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

إذًا العزّة للرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– العزّة للممتثل الأمر؛ لأنّ الله العزيز، **يقول**: {قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

انتهينا الآن من الآية (١٤٢)، ننتقل للآية (١٤٣): {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} هذا يدلّ على أيّ شيء؟ الآية تدلّ على أنّ هذه الأمّة لها فضل، لكن نحن في سياق الكلام عن تحويل القبلة.

الآن دعونا: نقسّم الآية إلى مجموعة جمل:

الجملة الأولى: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}.

{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً} هذه جملة تامّة، ما تعليلها؟ أنتم لماذا {أُمَّةً وَسَطًا}؟

الجملة الثّانية: {لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}.

فهذه **هي**: العلّة، وأيضًا هناك حالة أخرى ستكون مضافة لهذه الحالة.

الجملة الثّالثة: {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}.

لو قلنا هذه "واو الحال"؛ **يصير المعنى**: والحال أنّ الرّسول سيكون {عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}.

إذًا علّة كونكم {أُمَّةً وَسَطًا} أن تكونوا {شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}. والحال وأنتم {شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} أنّ الرّسول سيكون {عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}. هذا التّقسيم لأنّ هذه الجملة مركّبة على ما قبلها، إذا كان المعنى تامّا، أستطيع أن آخذ هذه الجملة وأستعملها، **لكن الجمل الّتي لها توابع**: تعليل، تمييز. كلّ هذه التّوابع ممكن تعتبرينها جملة تابعة فتستقلّ؛ لأنّ أكثر جملة مشهورة في الآية (١٤٣) : {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} فصارت **هي**: جملة مستقلّة، **وبعد ذلك**: جملة العلّة، وجملة الحال، كذلك.

الجملة الرّابعة: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ}.

هذه الواو عطفت موضوعًا على موضوع، ما هو موضوعنا الأساسي الّذي بدأت به الآية؟ أنّكم أمّة وسط، والغاية؟ لتكونوا شهداء، والحال؟ أنّ الرسول عليكم شهيدًا. هكذا انتهينا من الوسطيّة.

وبعد ذلك أُضيف لها موضوع ثانٍ: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا}. {كُنتَ عَلَيْهَا} فمازلنا لم نأتي بعد للتّحويل. {إِلَّا لِنَعْلَمَ} الآن سيظهر لي التّحويل، وأنّه سيكون هناك شيء في شأن القبلة سيُعلم بسببه {مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ} أي أنّ مسألة تحويل القبلة اختبار، وجودها وتحويلها اختبار. من أين فهمت أنّها اختبار؟ من قول الله تعالى: {لِنَعْلَمَ} الكلام عن الله.

لابدّ أن يكون هذا الكلام واضحًا؛ لأنّه من أخطر الأشياء الّتي تمرّ عليك في القرآن، وهو أنّ الكلام عن علم الله أحيانًا يأتي بصورة قد يفهم منها الجاهل أنّ هذا الحدث هو الّذي سيعلم الله من ورائه! **والحقيقة**: أنّ الله –عزّ وجلّ– علاّم الغيوب! يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون! فحين نسمع: {إِلَّا لِنَعْلَمَ} كيف نفهمها في حقّ الله؟

سنكتب كلمتين، وهذه أمانة من عندي لكم تعتقدونها تعيشون عليها وتموتون وتكون لكم في الميزان، فلا تستهينوا بما تعرفونه عن الله عزّ وجلّ، **حين تُلقّنوا عقائدكم؛ لا بدّ أن تدخل إلى الفؤاد فيثقّل الميزان؛ فلا تستقبليه بصورة فيها من نوع من الاستهتار! لأنّ مثل هذه النّعم إذَا رزقها الله –عزّ وجلّ– العبد؛ فإنّها لا تعود إذَا ما عاملها كما ينبغي!**

نحن نسمّي في عقيدة أهل السنّة والجماعة هذا النّوع: علم الظّهور، **ويقصد به**: أنّ الله –عزّ وجلّ– يبتلي الخلق، أو يمتحنهم بأمور؛ ليظهر لهم ما في نفوسهم، وحقائق الأحوال الّتي تخصّهم، فيُحاسبوا عليها.

إذًا الله يبتلي الخلق ليصبح علمه بالخفايا علمًا ظاهرًا –ولله المثل الأعلى– أريد منكم أن تتخيّلوا هذا في مواقف نعيشها...قد تكونين علمتِ عن أحد أنّه ذا مكر، ذا فساد في نيّته، وأنت لست شاكّة؛ وإنّما متأكّدة من خلال الموقف والموقفين والثّلاثة! ثمّ تجدينه يكلّم رئيسه في العمل بالكلام المعسول. الآن حالة هذا الرّئيس حالة المخدوع.

أنت الآن لصالح المسلمين، وليس لصالح نفسك؛ تفتعلين موقفًا ليظهر ما بداخله، الّذي يخبّئه! فيصبح الّذي يخبّئه، بعدما كان مخفيّا وأنت وحدك الّتي تعرفينه، يصبح ظاهرًا. هذا علم الظّهور.

إذًا هذا علم أنت تعرفينه، لكن لو أتيت تتكلّمين به؛ لن يصدّقك أحد، لكن حين تفتعلين الموقف ويظهر منه هذا الأمر يصبح العلم الخفيّ علمًا ظاهرًا، وطبعًا هذا اسمه: مكر؛ أن تفتعل موقفًا لأجل أن يظهر ما بداخل أحد، لكن إذَا كان لصالح المسلمين، وليس لصالحك أنت؛ يصبح المكر في مكانه، مثلًا: هذا يرتشي، وهذا يحبس مصالح المسلمين وبعد ذلك يذهب إلى رئيسه ويظهر له أنّه مهتمّ بالمصالح!

إذًا حين يأتينا عن ربّ العالمين قوله تعالى: {إِلَّا لِنَعْلَمَ} نعتقد أنّ هذا اسمه: علم الظّهور، **يعني**: بعد أن يكون الأمر في علم الله؛ يظهره الله للخلق.

بعد أن يظهره الله للخلق، ماذا ستكون النّتيجة؟ يُحاسب الخلق عليه؛ لأنّ الله –عزّ وجلّ– لا يحاسب الخلق إلّا على ما فعلوه بقلوبهم، أو بجوارحهم؛ هذا الحساب عليه.

والخلق لا يحاسبون الخلق، ولا يحقّ لهم في الشّرع المحاسبة، إلّا حين يظهر على جوارحهم. فحين يكون الآن عندنا منافقين في عهد النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– وعندنا مؤمنين، ويأتي الأمر بتحويل القبلة؛ المؤمنون الآن لأجل أن تُحفظ جماعتهم؛ تأتي اختبارات تبيّن المنافقين. يعني: {إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ} ما هو المقصود بها؟ علم الظّهور؛ بحيث أنّ جماعة المسلمين يعرفون مَن هم أولياؤهم؟ ومَن هم أعداؤهم؟ ويحاسبون على ذلك.

الله يعلم المنافقين، والمؤمنون لا يعلمونهم؛ ومن ثمّ يوالون المنافقين على أنّهم مؤمنون؛ فالله يبتليهم هذا الابتلاء لأجل أن يظهر المنافقين للمؤمنين؛ ومن ثمّ المنافقين يُعلمون عند المؤمنين ويحاسبون عند ربّ العالمين.

لذلك السّلف كانوا يقولون: (لا تذمّوا الفتن فإنّها مُظهرات) حين تأتي الفتن تظهر الحقائق؛ فالّذي كان ضعيف الإيمان، أوّل ما تأتي الفتنة، كأنّها تناديه، هو من البداية كان مع المؤمنين ومع المتّقين، وكانت محجّبة لأنّ الحجاب هو الممدوح، أمّا حين يذمّ الحجاب؛ تستسلم للهوى! فتأتي الاختبارات، (لا تذمّوا الفتن فإنّها مُظهرات) أي: تُظهر حقائق قوّة الإيمان؛ ولذلك الّذي يثبت في الفتنة عالمًا أنّ الله هو الّذي يثبّت؛ هذا لابدّ أن يستبشر بما عند الله؛ وأنّ الله -عزّ وجلّ- يزيده ويقوّيه، والّذي لا يثبت؛ فالله يعينه، عليه أن يتوب ويرجع إلى الله! والّذي يثبت ويظنّ أنّ ثباته من عند نفسه؛ فإنّه سيأتيه من الويل ما لا يتصوّره! تنزلق قدمه في مكان لا يتصوّره! الأصل أنّنا معتمدون في الصّلاح على الله: {ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ}(١).

المهمّ أن نفهم أنّ الفتن مُظهرات، {إِلَّا لِنَعۡلَمَ} أي أنّ تحويل القبلة اختبار لتظهر {مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ}.

الآن سنرتّب جملة جديدة: {وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}.

ما هي الّتي: {لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}؟ مسألة تحويل القبلة، امتحان، لماذا تعتبر امتحان؟ مشكلتنا أنّنا بعيدون عن الوضع؛ ليس لدينا إحساس لماذا هي لهذه الدّرجة كبيرة؟ قد سبق الإشارة إلى مدى ثقة الإنسان تجاه القادة، فإذَا جاء القائد إلى موضوع واحد، وقال لك اليوم: (اذهب يمينا)، وغدًا قال لك: (اذهب شمالًا)؛ فيقع في النّفس شكّ!

فاليهود فعلوا هذا الفعل، كانت أسوأ بيئة نمّوا فيها الإشاعة: (أنّه ما هذا الدّين الّذي كلّ يوم له قبلة مختلفة؟!) ثمّ إنّ القبلة شأنها ليس باليسير! القبلة سيستقبلونها خمس مرّات في اليوم! القبلة سيجتمع عليها النّاس في كلّ مكان! كيف تكون قبلتكم اليوم كذا، وغدا كذا؟! كأنّهم يريدون نزع الثّقة من الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- في كون أنّ دينه دين مهتزّ! كأنّهم يفكّرون أنّ القرارات كلّ يوم لها شكل؛ فإذَا كانت في القبلة الّتي هي الشّيء العظيم، كان موقفكم هكذا؟! كيف إذًا فيما هو دون ذلك؟!

ولذلك قُدّم لنا في الآيات السّابقة في أسباب قطع الطّمع أنّهم يعترضون على النّسخ! حين تقولين لهم: (هذه الآية منسوخة)؛ يعترضون عليك!

---

(١) سورة الفاتحة: ٦.

إذًا {وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}. لماذا هي كبيرة؟ قد لا تتصوّرون لأنّكم جالسون في المكيّف، تشعرون أنّه عادي لو قال لنا الرّسول: صلّوا هكذا، سنصلّي هكذا! ولو قال لنا: اذهبوا هكذا سنذهب هكذا! لكن هي ليست عاديّة! تصوّري الآن إذا اختلف العلماء في حكم، يقولون مثلًا: (هذه الأسهم البنكيّة حرام)، ثمّ يظهر نوع ثانٍ ويكون موافقًا للشّريعة ويقولون لك: (حلال)! مباشرة النّاس سيطلقون ألسنتهم على العلماء، ويقولون لك: (كلّ يوم لهم رأي! وكلّ يوم يغيّرون رأيهم!) ألا يحصل هذا على أمور تافهة ليس لها قيمة؟! وأصلا ليس كلّ النّاس داخلون فيها؟! **فتصوّري**: مكان هذه الأسهم، أو هذا الشّيء البسيط **"القبلة"** الّتي يتوجّه إليها كلّ النّاس، صعبة على النّفس، لكن الصّحابة الكرام لِقِمَّة التّسليم فعلوا، والمنافقون وجدوها فرصة للطّعن! ومن الطّعن سيأتينا في آخر جملة الآن: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} ما هو سبب نزولها؟ سبب نزولها السّؤال الّذي أتى من الصّحابة المتيقّنين، لكن الّذي حرّك هذا السّؤال أطروحات المنافقين واليهود: (أنّ هناك أناس صلّوا على القبلة القديمة وماتوا، ما الّذي يصير في صلاتهم؟!) ما هو الجواب؟ الجواب قاعدة عامّة، وهذه الجملة القرآنيّة لا تعرفوا كم لأهل العقيدة من استفادة منها؛ الّذي يقرأ **"أبواب الإيمان"**، في **"كتاب البخاري"**، أو في **"أبي داود"**، أو في غيره، سيرى كم أنّ هذه الجملة مفيدة وغزيرة المعنى. لكن المهمّ في النّهاية الصّلاة عُبّر عنها بالإيمان، **وعلمنا أمرًا مهمّا**: أنّه مادام فَعَلْتَ على الشّريعة، وأنت تظنّ أنّ هذه هي الشّريعة؛ فإنّه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}. والعلّة في أنّ الله عز وجلّ لا يضيع الإيمان: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}.

{إِنَّ} هنا للتّعليل، **يعني**: لأنّ {ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}.

بقي علينا أن نرى العلاقة بين أوّل الآية، وبين منتصف الآية الّتي هي مسألة القبلة، هل هذه الآية ابتدأت بالكلام عن القبلة؟ لا، وإنّما ابتدأت بالكلام عنكم كأمّة، فإذًا ما هي العلاقة؟

الآية (١٤٢) قالت لنا: عندما ستتحوّلون عن القبلة –الّتي هي مكّة– سيقول السّفهاء: {مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا} سينتقدكم السّفهاء –الّذين هم على الرّأي الرّاجح اليهود والمنافقين؛ لمناسبة السّياق؛

- **فكان الجواب الأوّل**: {قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ}، وبعد ذلك: {يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} وهنا قلنا: جواب فيه عزّة؛ ليس شأنكم، الله –عزّ وجلّ– يصرّف خلقه كيف شاء سبحانه وتعالى.

الآن الجواب الثّاني: طمأنة للمؤمنين على تحويل القبلة يتضمّن:

كما هديناكم إلى قبلة هي أوسط القِبَلِ وأفضلها؛ {جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا} **أي:** عدولًا خيارًا، وسطًا من جهة الاعتدال بين طرفين متطرّفين.

وما معنى "قبلة وسطًا"؟ وسطًا في منزلتها، لها المنزلة العالية، ليس التّوسّط، لا تفهموا "الوسط" بمعنى التوسّط في موقعها.

إذًا كما أنّه هداكم إلى أفضل القِبَلِ؛ كذلك أنتم {أُمَّةٗ وَسَطٗا} عدول خِيار فليس بغريب عن حالتكم أن تكونوا في أحسن حال في كلّ شيء: قبلتكم، حالتكم، قادتكم، فأنتم في أحسن حال؛ لأنّه **مثلًا:** قارنوا بين أصحاب النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وبين أصحاب موسى وعيسى وبين الّذين اجتمعوا على لوط، والّذين اجتمعوا على إبراهيم، عليهم السّلام جميعًا؛ وسيتبيّن لكم الأمر! ستجدين أنّها {أُمَّةٗ وَسَطٗا}! والله -عزّ وجلّ- شاء هذا مع الأمّة الخاتمة لتحمل الدّين وتبلّغه؛ وهذا أكثر ما يميّز صحابة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أنّهم جاهدوا في نشر الحقّ.

إذًا إلى الآن: كم إجابة لاعتراضهم على القبلة؟ ثلاثة:

الإجابة الأولى: {قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ}.

الإجابة الثّانية: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا}.

لماذا جُعلتم {أُمَّةٗ وَسَطٗا}؟ {لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ} لو قرأناها منفصلة: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ} لهذه العلّة.

ولو قرأناها تابعة لما سبق؟ الله -عزّ وجلّ- أعطاكم هذه القبلة، أو حوّلكم إليها؛ لأنّ الشّأن شأنه يفعل ما يشاء، وكما حوّل لكم هذه القبلة؛ جعلكم {أُمَّةٗ وَسَطٗا} يصبح من مسؤوليّات الأمّة الوسط أنّها تشهد على النّاس، ثمّ بعد ذلك هذه الأمّة الوسط نفسها، الرّسول سيكون شهيدًا عليها.

الإجابة الثّالثة: {وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ} **معنى ذلك:** أنّه {وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا} ما علاقتها بالموضوع؟ أنّها التّعليل الثّاني لاعتراضهم على القبلة.

وبعد ذلك الرّد على شبهة "إضاعة الإيمان" أنّها لو تحوّلت القبلة ستضيع الصّلاة، لو تحوّلت القبلة فما حال الأوّلين؟

الآن نقرأ الآية (١٤٤) جملة، جملة:

الجملة الأولى: {قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ}.

الجملة الثّانية: {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَا}.

الجملة الثّالثة: {فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ}.

الجملة الرّابعة: {وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ}.

الجملة الخامسة: {وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ}.

الجملة السّادسة: {وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ}.

الآن نرى في هذه الآية الأدب من النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- والمكافأة على الأدب. إذًا أين الأدب في أوّل جملة: {قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ}؟

التّقلّب بمعنى: أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كان ينظر جهة الكعبة، ويصرف بصره وقلبه متعلّق بها، والله أعلم به؛ ولأنّه شرع ما سأل النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- التّغيير. ماذا لو كانت حاجة من حوائج الدّنيا، أو حاجة من حوائج الآخرة؟ كان سيعجّل بالطّلب، يعني كان يخاف على قلبه فيقول -صلّى الله عليه وسلّم- مكرّرًا: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)[1]

يريد لأهل المدينة أن يتّسع لهم الرّزق، فيدعو -صلّى الله عليه وسلّم- بالبركة لأهل المدينة.

إذًا: كلّما احتاج دعا صلّى الله عليه وسلّم.

لكن لماذا لم يطلب تحويل القبلة؟ لأنّه لا يتعدّى على الشّرع؛ لأنّ الطّلب تعدّ على الشّرع، مثل: لمّا أحد يقول: (لماذا جعل ربّنا للمرأة نصف ميراث الرّجل؟ إلخ...)! يريد أن يتغيّر الشّرع! يريد أن يظهر دليل يبيح مسألة يهواها! فهذا يُعتبر تعدٍّ على الشّرع، إساءة أدب! تصوّري أن يدعو لتغيير أمر شرعي؛ يعتبر إساءة أدب! أمّا الاعتراض على الشّريعة سيُعتبر من أكبر الجرائم! لابدّ أن يشعر الإنسان بأنّها جريمة! لأنك تعترضين على الملك العظيم! الرّبّ الكريم الحكيم الّذي يشرّع ما ينفعك! لكن المشكلة دائما في الّذين يعترضون على التّشريع أنّهم يعتقدون أنّ الدّنيا هي دار الخلود! أنّهم باقون هنا! وليس

(١) أخرجه التّرمذي (٣٤٦٨).

كأنّها ممرّ وتنتهي، كأنّه يُقال لك: هذا حجابك هذه الفترة وأنت تعيشين في الحياة فقط، وبعد ذلك في جنّات النّعيم الله -عزّ وجلّ- يعطينا ما يعطينا، أسأل الله أن يكرمنا ويعطينا نحن وذرّيّتنا ووالدينا والمسلمين وأحبابنا أجمعين.

فتقولي لها: (اصبري على كذا من الأحوال، اصبري على والديك، اصبري على كذا) تقول لك: (أنا طول عمري سأصبر!)! حسنًا، وأنت كم سيكون طول عمرك؟! ماذا سيكون العمر في مقابل ما سيستقبل الإنسان؟! فالمشكلة الرّئيسيّة في الاعتراض على الشّريعة؛ عدم فهم أنّك مختبر بالشّريعة زمنًا يسيرًا محدودًا! محدودًا! فأنت لن تكون طوال حياتك هنا؛ فهذه فقط قاعة الاختبار! وبعد ذلك ستخرج منها! فالدّنيويّة هي من قتلت النّاس! الّتي أشعرتهم أنّه (طوال عمري أقوم أصلّي! وطوال عمري سأفعل كذا! وطوال عمري سأتصدّق! وطوال عمري سألتزم بالحجاب! ما هو عمر الإنسان الدّنيويّ؟ لا شيء! وقد سُئل نوح في بعض الآثار، وقد عاش أكثر من **١٠٠٠** عام؛ أنّه: (كيف ترى الحياة؟) قال: (كأنّني دخلت من باب، وخرجت من آخر!) وإنّ هذا المعنى في أمّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أقوى وأسرع؛ لأنّها أمّة في الأصل عمرها قصير! فلا يغرّنّكم أنّكم صغار! لا يغرّنّكم! في غمضة عين ستصل إلى ٤٠ و ٥٠!

المقصد الآن: أنّ الخلق يُختبرون بالشّرع زمنًا يسيرًا؛ فلا دعاء، ولا اعتراض، **يعني**: لا دعاء في زمن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ولا اعتراض في الزّمن الّذي بعده، فأنت لم تسمعي أحدًا أبدًا من صحابة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه دعا أن يغيّر الله الشّرع! كانوا يقولون: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}(١).

إذًا: لو أردت أن تعلّلي تقليب الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وجهه في السّماء دون أن يكون هناك دعاء، ستقولين: لأنّه شرع. في مقابل: أنّهم لو كانوا يحتاجون إلى ملح كانوا يدعون ربّنا.

الآن هذا الأدب قابله الله عزّ وجلّ بقوله تعالى: {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}.

وكلّ هذه الحروف تحتاج أن تفكّري فيها: اللاّم، والفاء، والتّأكيد، كلّ هذه بشرى للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ أنّه: (أبشر! أبشر! ستُوَلّى {قِبْلَةً تَرْضَاهَا}). و{تَرْضَاهَا} من عجائب الكلام؛ لأنّ **معنى ذلك**: أنّ الملك العظيم -سبحانه وتعالى- يرضي أولياءه، وأنت تدخلين في هذا، تدخلين في أنّ الله يُرضيك لو قلت: (رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا)(٢) من قلبك؛ لأنّه ورد في النّصّ أنّه (كَانَ حَقًّا عَلَى

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٢) أخرجه التّرمذي (٣٣٣٦).

اللَّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ) **يعني**: كأنّه بلغ مبلغ القسم؛ أنّه إلّا سيرضيه الله! ماذا سيكون مصيرك لو كان الّذي له المشرق والمغرب -سبحانه وتعالى- سيرضيك؟ النّعيم المقيم؛ فحين تقرئين هذه الكلمة لابدّ أن تعرفي ماذا يعني أن يُوعَدَ النّبيّ بأن يُوَلّى قبلة يرضاها؟ وكيف أنّ الملك العظيم يُرضي أولياءه؟ طبعًا أعظمهم الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- والرّسل الكرام، لكنّنا داخلون فيها من فضل الله ومن باب هذا الذّكر اليسير: (رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا) لكن لابدّ أن يكون من قلبك؛ وبذلك تفهمين أنّه لمّا استسلم النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وما كان منه إلّا تقليب وجهه، كان الجزاء أن يُرضيه. لمّا لم يتعدّ على الشّريعة، ورضي بحكم الله؛ أرضاه الله.

وكلّ النّاس يدخلون تحت هذه القاعدة: أنّ الّذي لا يتعدّى على الشّريعة ويرضى بحكم الله القدري، والشّرعي؛ حقٌّ على الله أن يُرضيه.

فإنّ الخاسر! الّذي أبقى نفسه في الشّقاء، هو الّذي لم يرض عن قسمة الله! ولا يقدر أن يغيّر قسمة الله! انظري إلى الّتي تمسك بشعرها كلّ فترة، وتقول: (أنا لا يعجبني شعري هذا!)! مهما فعلت لن يتغيّر هذا، مهما خدعوها بأنّه سيتغيّر فإنّه سيبقى كما هو! فتعيش في شقاء، ولم تكسب رضا الله! أليس ربّنا بقادر على أن يبدّل هذا بأحسن ما يكون؟ بلى قادر -سبحانه وتعالى- **لكن القاعدة**: أنّك تُختبر وترضا، تُختبر وترضا؛ فيُرضيك الله.

هل أنا في البداية سأختار الرّضا؟ نعم، أنت في البداية تصير راغبًا في أن ترضى، وتطلب من ربّنا أن يُرضيك، وبعد ذلك تقول: (رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا). لابدّ أن تكون هناك خطّة واضحة للحياة؛ لأنّ الحياة واقعيّا مهما فعلت فلن تأتي على هواك، وإذَا جاء شيء من الأشياء على هواك؛ فإنّه سيقابله ١٠ ليسوا على هواك! وأنت الآن من البداية عليك أن تختار كيف تفكّر؟ هل ترضى وتطلب من ربّك أن يُرضّيك؛ إذًا ستعيش في سعادة، وإن لم ترض! إذًا تكون فتحت على نفسك باب نار الشّقاء! لن ترضى، ولا شيء سيرضيك! وهذا كأنّه قرار حاسم في الحياة! أنّني من البداية آخذ موقفًا: (بأنّني سأرضى بما قسمه لي ربّنا).

وماذا عن الأسباب؟! الأسباب تأتي -إن شاء الله- لكن حين تعامل الأقدار بالرّضا، حتّى أنّك قد لا تهتمّ بوجود الأسباب، وتأتيك من حيث لا تحتسب!

المشكلة: أنّهم في قوانينهم الدّنيويّة، يقولون لك: (ارض عن نفسك)! وكذلك وصلوا إلى أن يضعوا لك مقاييس دقيقة جدّا في كلّ شيء لو ما تحقّقت هذه المقاييس؛ لا ترضى عن أيّ شيء! فهذا هو الشّقاء!

المقصد: أنّ نبيّنا الكريم رضي بما قسم الله مع قوّة شوقه للبيت الحرام، وحين تقولين: "مع قوّة شوقه" فإنّ هذه مشاعر لا تُطاق! أنّه يكون يحبّ مكّة لهذه الدّرجة، **يعني:** يجتمع في حبّه لمكّة:

- كونها بلده الّتي عاش فيها.
- وكون أنّ فيها الكعبة.
- وكون أنّها ميراث إبراهيم عليه السّلام.
- وأمور كثيرة في النّفس تُشوّق إليها.
- وكيف لمّا كان -صلّى الله عليه وسلّم- في مكّة يطوف، وبعد ذلك يخرجه أهلها -صلّى الله عليه وسلّم- فيكون الألم الشّديد لذلك.
- ثمّ إنّه يصل إلى الحديبية، ويمنعونه صلّى الله عليه وسلّم!

وكلّ هذا وهو في ذلك راضٍ -صلّى الله عليه وسلّم- هذا الحنين كلّه هو الّذي يجعله يقلّب وجهه -صلّى الله عليه وسلّم- في السّماء! لكن مع ذلك، مع كلّ هذا الحنين، لكن لم يعترض على الشّريعة.

ولماذا لم يدعُ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ لأنّه شرع.

هذا الرّضا قابله الله -عزّ وجلّ- بالمكافأة، قيل له: {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا}.

{تَرْضَىٰهَا} فيها السّرّ؛ فالّذي يرضى يرضّيه الله عزّ وجلّ.

الآن أتى التّصريح بالقبلة الّتي يرضاها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وأتى أمرًا صريحًا: {فَوَلِّ} فعل أمر، أُمر النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وجاء الأمر الآن.

{شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ}: هذا من الثّناء على المسجد، ومن إظهار مكانته، أن سُمّي: {ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ} **معنى ذلك:** جاء الأمر صريحًا بأن يولّي وجهه قبلة المسجد الحرام، هذه أوّل مرّة؛ لأجل أن تَرَي

كيفية الإرضاء؟ والمرّة الثّانية أيضًا للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وستجتمع معه أمّته: {وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ} هكذا اجتمع أمران هنا:

١. أنت وأمّتك.

٢. وكذلك في أيّ مكان.

معنى ذلك: أنّ كلّ أتباعك في أيّ مكان ستكون وجوههم شطر المسجد الحرام؛ سواء كنتم في حلّ أو سفر.

فتكرّر الأمر بطريقتين، عادة حين تأتي الأوامر للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في القرآن، إذَا كان الأمر ليس خاصّا بالنّبيّ؛ فإنّه غالبًا في القرآن لا يُعاد الأمر موجّهًا للأمّة، إلّا أمر القبلة؛ إكرامًا للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يعني: أنت وَلِّ وجهك، وأمّتك تولّي وجهها، وأينما كنتم في سفر أو حضر؛ فقبلتكم الكعبة. كلّ هذا تأكيدًا لهذا التّحويل.

سيبقى معنا جماعة بعد هذا الأمر الصّريح يمكن أن يحصل قلق منهم بعدما كانت تُتولّى قبلتهم؛ وهم الّذين أوتوا الكتاب؛ سواء كانوا اليهود، أو النّصارى. وتأتي الجملة فيها من التّأكيد ما فيها: {وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ} يعني: صفتك عندهم: أنّك تصلّي إلى القبلة؛ فإذًا: يقينًا أنّ الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- مطمئنّ من كلّ جهة، يعني: تحويل القبلة وافق ما يُرضي النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وفي نفس الوقت وافق ما عندهم في الكتاب.

وختم الله -عزّ وجلّ- الآية بقوله: {وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ} من هم أقرب مذكور؟ أهل الكتاب. {عَمَّا يَعۡمَلُونَ} من ماذا؟ من مكر، من كيد، من تشويش على القبلة.

الآن الآية (١٤٥):

الجملة الأولى: {وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ}.

الجملة الثّانية: {وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ}.

الجملة الثّالثة: {وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖ}.

الجملة الرّابعة: {وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}.

الآن سنترك الكلام عن المؤمنين الّذين سيتّبعون القبلة، وسنناقش موضوع تحويل القبلة مع أهل الكتاب. ولا تنسوا بأنّ السّياق كلّه أصلًا في الكلام عن اليهود الّذين يشوّشون على المسلمين، يعني كلّ حدث في أصله سعيد على المسلمين؛ يكون منهم التّشويش؛ فخبر تحويل القبلة في أصله خبر يرضي النّبيّ لكن الّذي سيشوّش على هذا الخبر، أو هذا الشّرع هم اليهود؛ فلذلك أوّل ما أمره الله -عزّ وجلّ- بأن يولّي وجهه إلى المسجد الحرام هو وأتباعه؛ مباشرة قال الله عزّ وجلّ: {وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ}. ثمّ خُتمت الآية بقوله تعالى: {وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ} إشارة إلى أنّ لهم كيد ومكر في مسألة القبلة.

الآن سنرى كيف أنّ الله -عزّ وجلّ- يحكم عليهم، أو يخبر عن أحوالهم خصوصًا في مسألة القبلة.

الجملة الأولى كانت قوله تعالى: {وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ} ما هو جوابها؟ {مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ} **يعني**: اليهود والنّصارى مهما أتيتهم بآيات تدلّ على أنّ هذه القبلة هي الحقّ؛ وأنّه شرع من عند الله، وأنّه موافق لما كانوا عليه، وأنّ هذا دين إبراهيم -عليه السّلام- أيّ مناقشات ماذا ستكون نتيجتها؟ لن يتّبعوا قبلتك.

وأنت ليقينك ماذا سيحصل منك؟ {وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ} هذا إشارة إلى أنّ مسألة القبلة تدلّ على الهويّة، هويّة الإنسان؛ فهم لماذا لا يرضون باتّباع قبلتنا؟ ولماذا اليهود لا يتّبعون قبلة النّصارى؟ ما هو السّبب؟ لأنّ القبلة تمثّل الهويّة للإنسان، فاليهود معتزّون بقبلتهم الّتي هي هويّتهم، والنّصارى كذلك، والمسلمون المفترض أن يكونوا معتزّين بقبلتهم؛ ولذلك المستشرقين من غيظهم من القبلة، وصلت بهم الحال أنّهم يقولون: (أثبتنا علميّا إنّ مكّة -المعروفة ومشهورة عند كلّ النّاس من الأوائل- قرية في الأردن)! وآخرين قالوا: (لا! في شمال الطّائف)!

لكن سبحان الله كيف اندثر هذا الكلام -أسأل الله أن لا يبتلينا بأحد يخرّجه- اندثر اندثارًا ولم يعد له قيمة إلّا عند الأعداء. **لكن السّؤال**: لماذا يعادوننا حتّى في القبلة؟ لأنّها إشارة إلى الهويّة، يعني كوننا نرتبط بإبراهيم -عليه السّلام- الّذي هو مرجعنا ومرجعهم، وكون هذا البيت بناه إبراهيم، هذا ممّا يسبّب حقدهم؛ لأنّه أيّ واحد عاقل ومنصف، سنقول له: (نحن وأنتم نعود لإبراهيم -عليه السّلام- وهذا بيت إبراهيم -عليه السّلام- فهل علينا خطأ في أن نتوجّه لبيت بناه أبونا بأمر الله؟! لا! ليس علينا خطأ؛ وإنّما الخطأ عليكم أنتم أنّكم ما توجّهتم لنفس البيت!) فحقيقة البيت الحرام وتاريخه تجعل المنصف يسلّم،

لكنّهم الآن لا يسلّمون لأنّهم أصلًا في قلوبهم عدم إرادة الحقّ، يعني: البيت يلزمهم بالحقّ، لكنّهم في قلوبهم عدم إرادة الحقّ.

والله -عزّ وجلّ- يقول: {وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ} وخُتمت الآية بقوله تعالى: {وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}. هل ممكن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يتّبع أهواءهم بعدما جاءه من العلم؟ لا، إذًا لا بدّ أن نحلّل هذا الخطاب الشّديد للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وسنخرج بثلاث نتائج:

النّتيجة الأولى: أن نعلم أنّ لأهل الباطل أهواء يفرضونها على أهل الحقّ، مثل ما نجده من نظريّات تنتقد ديننا، أو حتّى لو كانت ليست في الدّين، هذه ما مصدرها؟ أهوائهم! هل رأيت إنسان لديه هوى؟ لا يرضيه إلّا أن يجد أكبر متابعين له، فلا يرضي صاحب الهوى إلّا أن يُطلق هواه على النّاس؛ والنّاس يتّبعونه.

ولذلك تجدين الحرص الشّديد جدّا، والأموال الكثيرة المنفقة في الإعلانات عن أشياء أحيانًا تكون ليس لها مردود، لكن ما هو المردود عندهم؟ أن تتّبع هواهم، الّذي يُسعد أصحاب الهوى، أن يجدوا عليك آثار هواهم: في ملبسك، وفي كلامك، وفي اعتقاداتك، في أيّ شأن ولو كان حقيرًا! **إذًا لابدّ أن نعرف:** أنّ أصحاب الهوى يحرصون على أن يكون لهم أتباع.

وأنت الآن حين ترين ما يجده المسلمون -أنفسهم وليسوا كافرين- في أنفسهم من شهوة لكثرة الأتباع، هل رأيتم الّذين يُطلقون على أنفسهم أنّهم "مشاهير"! كيف اشتهروا؟ بسبب كثرة الأتباع؛ فهذه الشّهوة لا يُمكن أن تُقاوم! فلا تقاومها إلّا التّقوى! لكن إذَا فُتح على الإنسان هذا الباب؛ تجده يريد أن يكون مشهورًا ولو على عشرة! لكن المهمّ أن يصير مشهورًا!

مثال: واحدة عرفت عن الثّانية أنّها كتبت مقالة صغيرة، وكُتب لها ٥٠ تعليقًا بأنّه جميل، فالثّانية تقول لها: (والله لو كُتب لي ٥٠ تعليقًا؛ لن أنام في اللّيل)! من الفرح!

المقصد أن تتصوّروا كيف أنّ هذه شهوة ليس لها مقاومة إلّا بالتّقوى.

إذًا الفائدة الأولى: أنّ أهل الباطل لهم أهواء، ويطلبون لها متابعين.

وبعد ذلك سنأتي إلى قوله تعالى: {مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ} ماذا يحمينا من اتّباع أهواء النّاس؟ العلم يحميك من اتّباع هوى النّاس، فهذا يخرج عليك بكلام، وهذا يتكلّم بكلام! فكيف تميّز أنّ هذا

الكلام حق وليس هوى؟ بالعلم؛ تعلّم من المصدر الإلهي، تعلّم ماذا قال الله، وقال الرّسول. وبعد ذلك تقيّم ماذا قال "سين" و"صاد" و"عين" و"لام"؟ ثمّ إنّنا والله نستحي أن نسمع من يقول: (فلان قال لنا: لأجل أن تصبح نفسيّتكم أحسن افعلوا كذا!) وربّ العالمين قال: {أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ}(١). أليس عيبًا أن تبحث عن راحة نفسك وانشراحها، فتأتي بكلام فلان! وأنت عندك كلام ربّ العالمين في كتابه!

إذًا:

الفائدة الأولى: أنّ أصحاب الأهواء لا يرضون حتّى تتّبع هواهم.

الفائدة الثّاني: أنّ الّذي يُنجّيك من الهوى: العلم.

الفائدة الثالثة: لو ما فعلت هذا {إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}. ظلمت نفسك! رميتها في أودية الهلاك، لو اتّبعت كلّ ناعق نعق، إذًا من اتّبع هوى النّاس ظلم نفسه.

وهذا التّحذير الّذي خُوطب به النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- والمقصود: خطاب الأمّة.

الآن أثناء نقاش موضوع القبلة؛ تبيّن لنا أنّ النّقاش ليس دائر حول استسلام المؤمنين لموضوع القبلة، فهم قد استسلموا؛ وإنّما النّقاش لأجل ردّ كلامهم، ردّ شبههم الّتي ألقوها؛ وهل يهدأ لهم بال أن تستقرّ نفسك في شرع؟! أبدًا! فالمسلمون كلّما استقرّت نفوسهم في شرع؛ إلّا ويطلقون عليهم أهواءهم!

الحمد لله انتهينا من الآية (١٤٥)، سنصل إلى الآية (١٤٦):

يقول الله عزّ وجلّ: {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}(٢).

الآن الآية (١٤٦) والآية (١٤٧) واضحتان في الكلام عن أهل الأهواء.

---

(١) سورة الرّعد: ٢٨.

(٢) سورة البقرة: ١٤٦_١٥٠.

دعونا نقولها جملة، جملة، سنبدأ بقوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} ما بهم؟ {يَعْرِفُونَهُ}: الضّمير عائد على من؟ على أصحّ الأقوال عائد على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. إذًا هذا التّقرير واضح: أنّ {ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ} إلى هنا هذه جملة تامّة. يعرفون النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ثمّ شُبّهت المعرفة، بماذا شُبّهت؟ {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ} وهذا التّشبيه غاية في البيان؛ لأنّ الإنسان يستحيل أن لا يعرف أبناءه؛ مهما كثر الأولاد سيعرفهم من بين النّاس. فهم سيعرفون النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ} كما يميّزون أبناءهم. وما قيل: "كما يعرفون أنفسهم" لماذا؟ تصوّري أُمًّا عندها طفل في رياض الأطفال، ذهبت لتحضره، هل سيختلط عليها الأطفال ولا تعرف ولدها؟! لن يكون منها ذلك أبدًا! بل حين تبحث عن طفلها ستميّزه مباشرة.

هم الآن موجودون في المدينة منتظرون النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ جاء النّبي، هل سيتوهون عنه؟! لا! وإنّما سيميّزونه مباشرة كما لو كان أحد لديه أولاد بين أولاده؛ فإنّه سيميّز أولاده مباشرة!

إذًا صفات النّبيّ موجودة عندهم {ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ} **ومع ذلك:** {وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ} وهنا تكمن المشكلة! وقد ورد في بعض الآثار أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال: (لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنْ الْيَهُودِ لآمَنَ بِي الْيَهُودُ)[1] لو آمن فقط عشرة ممّن كانوا معه في المدينة لآمن بنو إسرائيل جميعًا!

لكن تصوّري هم جاؤوا من الشّام مرتحلين، من قبل أن يأتي النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بسنين طويلة، وسكنوا يثرب؛ لأنّ عندهم في كتابهم أنّ النّبيّ سيخرج هنا في هذا المكان، وأصابوه بالضّبط! ولك أن تتخيّل كيف وُصف المكان في التّوراة لدرجة أنّهم ما أخطؤوا سُكنى المدينة! ثمّ بعد ذلك يأتيهم ويكونون على قيد الحياة يعيشون، وما آمن منهم حتّى عشرة! هذا شيء يحتاج إلى تفكير: كيف اجتمعوا على الباطل؟!

إذًا هؤلاء يعرفون النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ} ومع ذلك كفروا!

{وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ} الفريق الّذي هو علماؤهم، أحبارهم هم من يقولون هذا القول.

---

(١) أخرجه البخاريّ (٣٦٧٢).

في نهاية هذا النّقاش قيل: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} فإنّ هذا حقّ، تحويل القبلة حقّ، صحيح أنت كنت مشتاقًا لذلك، لكن هو أصلا حقّ، وقد جاء في كتبهم أنّ قبلتك الكعبة.

سنقول في الجملة التّالية كما قلنا في الجملة السّابقة: النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لا يمكن أن يكون {مِنَ الْمُمْتَرِينَ} لكنّ النّهي إذا وجّه إليه من هذا النّوع إنّما يُوجّه لأمّته الّتي يمكن أن يدخل فيها شيء من الشّكّ. والامتراء أعلى من الشّكّ. من الضّرورة أن تأتوا إلى الفروق اللّغويّة وتقرؤون في كتب الفروق اللّغويّة، الفرق مثلًا: بين الامتراء والشّكّ، وتسجّلونه؛ لأجل أن لا يغيب عن بالكم.

ننتقل إلى الآية (١٤٨) والآية (١٤٩):

الجملة الأولى: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}.

الجملة الثّانية: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}.

الجملة الثّالثة: {أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا}.

الجملة الرّابعة: {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

ما مضى كان حقّ، وهنا أيضًا زيادة في بيان الحقّ. ما هي الزّيادة هنا؟ {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} ما المقصود ب {وِجْهَةٌ}؟ بمعنى: أمّة، أي: لكلّ أمّة لها نبيّ قبلة يتوجّهون إليها، أو شريعة، أو منهج.

ما معنى {هُوَ مُوَلِّيهَا}؟ مائل بها إليها، يعني: الله -عزّ وجلّ- يشرّعها لهم، يجعل قلوبهم تميل إلى القبلة، تميل إلى الشّريعة لأنّها حُبّبت لهم.

إذًا لكلّ أمّة شريعة تتولّاها والقبلة من ضمن الشّريعة. ما هو المطلوب منكم الآن؟ {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}. والجملة الّتي بعدها فيها تقرير. ما هي علاقة هذا التّقرير: {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}؟ قدرة الله واضحة: {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا}؛ {يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا} تحتمل أن تكون يوم القيامة يوم الحساب وأيضًا: الجمع على الشّريعة، أو الجمع على القبلة.

ستأتي الآيتين بعد ذلك، الّتي هي الآية (١٤٩) والآية (١٥٠)

سنكتب باختصار: الآية (١٤٩) والآية (١٥٠): تكرار تحويل القبلة؛ دلالة على عظمة شأن القبلة، ودلالة على كثرة ما حصل في وقت تحويلها من تشويش.

دعونا نرى خاتمة الآية (١٥٠)؛ لأجل أن تتصوّروا كيف حصل في وقتها من تشويش:

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.

الآن في آخر السّياق، هناك دلالة على أنّ هناك من يحتجّ على المؤمنين بتحويل القبلة، يحتجّون على أمّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يفعل ما يهوى! ماذا قيل عن هؤلاء؟ {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا}، حُكم عليهم بأنّهم: {ظَلَمُوا}، لماذا؟ لأنّهم يعرفون الحقّ ويضعونه في غير مكانه. **المهمّ**: ما هو المطلوب من الأمّة بعدما يتبيّن لها الحقّ، والأمر يكون غاية في البيان، ويهاجم الشّريعة من يهاجم؟ **الأمر الأوّل**: امتثال الأمر نفسه، من بداية الآية: {وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا} حتّى هؤلاء الظّالمين، ما هو شأنكم معهم؟ أن تتولّوا كما أمركم ربّكم، يعني لا تتخلّوا عمّا شُرع لكم لأنّ الظّالمين يشوّشونه عليكم.

الأمر الثّاني: وأنتم مؤتمرون بالأمر {فَلَا تَخْشَوْهُمْ} لا تخشوا الانتقاد؛ لأنّ النّاس طوال الوقت ما هي مشكلتهم؟ الخوف من الانتقاد، نخاف أن يقول النّاس علينا: (معقّدين!)، ويقولوا علينا: (رجعيّين!). **إذًا** لا تخشى انتقاد {الَّذِينَ ظَلَمُوا}. ربّنا سمّاهم: {الَّذِينَ ظَلَمُوا}؛ لأجل أن تقول: (هؤلاء {الَّذِينَ ظَلَمُوا} لا أخشاهم!).

الأمر الثّالث: {وَاخْشَوْنِي} **المطلوب منك**: أن تخشى الله؛ وعلى ذلك فإنّه أصبح هنا: توحيد الله بالخشية؛ لأنّها نُفيت عن غير الله، وأُثبتت لله.

انظري نهاية هذه الآية: {وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} أين النّعمة؟ ماذا تعني اللام؟ ماذا تفهمين من ختام الآية بأنّ الله -عزّ وجلّ- يُخبرنا عن إتمام نعمته علينا {وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}؟

هي ستحتمل أمرين في مسألة إتمام النّعمة: ابتلاءنا بالأعداء نفسه، وظهور الحقّ بعد الابتلاء بالأعداء من نعمة الله.

لأجل أن تتصوّروا المسألة: الآن قبل أن يظهر في الأيّام الماضية مسألة الإلحاد؛ الإلحاد كلّه شرّ بدون مناقشة، لكن ظهوره جعل النّاس يتعلّمون الحقّ، ويردّون على أهل الباطل؛ فسنّة الله في إظهار الحقّ ابتلاؤه بأهل الباطل؛ **إذًا**: من تمام نعمة الله فيما يُشرع للمسلمين أن يُبتلوا بالمعترضين، لكنّه يُظهر الحقّ.

انظري: كم من القواعد الّتي تعلّمناها من الآيات، رغم أنّنا لم نتناقش في شيء وإنّما كنّا نراها فقط بالإجمال، لكن كثيرًا من هذه الآيات الّتي في مسألة تحويل القبلة تُعتبر قواعد شرعيّة. كيف استفدنا منها؟ من فعل اليهود والمنافقين لمّا شوّشوا على المسلمين، الله –عزّ وجلّ– أنزل هذه الآيات الكريمات لبيان الحقّ، ولتثبيت أهل الحقّ؛ **فكان من إتمام النّعمة**: الابتلاء بالأعداء. وهذه سنّة الحياة ولا يمكن لأحد تبديل هذا الأمر: **الحقّ يظهر على قدر قوّة أهل الحقّ في ردّ الباطل!** لكن لو ما كان هناك باطل؛ لن يوجد أحد سيتكلّم! إذًا كيف سيظهر العلم؟ فلم يكن العلم ليظهر من بطون الكتب إلّا عندما تأتي الفتن، وإلّا فإنّ كلّ المناقشات المتّصلة بالإلحاد، هذه كانت في بطون الكتب، وكانت عند العلماء المتخصّصين! لكن ظهر الإلحاد؛ فظهر الرّدّ عليهم. وهذا يذكّرنا بالفترة الّتي خرجت فيها الشّيوعيّة، الشّيوعيّة قبل ٥٠ سنة كانت على قدم وساق تُنشر في بلاد المسلمين، وردّ المؤمنون، وردّ الله شرّ الشّيوعيّة، وبعد ذلك هدأ النّاس في هذه المسألة، ونسوا كثيرًا من تفاصيلها، وحتّى في منهج الثّانوي قبل ١٠ أو ١٥ سنة، أو أكثر من ١٥ سنة، كان هناك فصل عن توحيد الرّبوبيّة والرّدّ على الطّبيعيّين، حذفوه من باب أنّه لا توجد حاجة إليه! يعني: لهذه الدّرجة ممكن الإنسان أن يهدأ، ويشعر بأنّ هذا النّوع من العلم لسنا بحاجة إليه! فتأتي الإشكالات؛ ليكون الجواب في الرّدّ على هؤلاء بإظهار جزء من العلم. إذًا: هذا من إتمام النّعمة، يعني ممكن أن يكون معنى الآية: "من إتمام النّعمة الابتلاء بالمخالفين"، أو نفس موضوع القبلة يكون من إتمام النّعمة.

إذًا: نحن لدينا معنيان لإتمام النّعمة:

المعنى الأوّل: لأجل أن يتمّ الله نعمته، لا بد أن يأتي ابتلاء.

المعنى الثاني: نفس القبلة من النّعمة الّتي أتمّها الله علينا {وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} بهدايته لكم إلى القبلة.

بذلك نكون توقّفنا عند الآية (١٥٠) وانتهى الكلام عن موضوع القبلة.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مدارسة سورة البقرة

"دارسة إجماليّة"

أ.أناهيد بنت عيد السميري

"الجزء الثّالث"

اللّقاء الثّاني عشر: الخميس ١١ جمادى الأوّل ١٤٤٠ هـ

"تابع مدارسة المقصد الثّاني (٤٠_١٦)"

بسم الله الرّحمن الرّحيم

"مقدّمة"

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله –عزّ وجلّ– على تيسير الاجتماع حول هذه السّورة العظيمة.

كنّا بدأنا في دراسة سورة البقرة، وتبيّن لنا أنّ السّورة فيها: مقدّمة، وخاتمة، وأربع مقاصد.

وكانت المقدّمة فيها: ثناء على القرآن، وبيان أقسام النّاس تجاه كتاب الله: المؤمن، والكافر، والمنافق.

ثمّ كان المقصد الأوّل كما تعلمون: دعوة النّاس كافّة إلى عبادة الله، الّتي ابتدأت بقوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ}(١).

ثمّ أتى: دعوة بني إسرائيل خاصّة، وبدأت بهذه الآية الفذّة، وهي قوله تعالى: {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ}(٢) وقلنا إنّها آية فذّة لأنّ فيها نداء بني إسرائيل بأرقّ النّداءات، يعني: يا أبناء الرّجل الصّالح، ذكّرتهم بِنِعْمَة الله –عزّ وجلّ– عليهم من الإيمان، وهذا الفرق بين نداء أهل الكتاب الّذين يُتصوّر أن يكون الإيمان مقرّرًا عندهم، وبين أهل الشّرك وأهل الكفر.

أهل الشّرك وأهل الكفر **قيل:** {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ} ولمّا أتى النّداء لليهود الّذين هم أهل كتاب، ويعرفون الإيمان، **قيل:** {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ}.

هكذا انتهينا من المقصد الأوّل، والمقصد الثّاني، بقي علينا خاتمة المقصد الثّاني، هكذا المقصد الثّاني كلّه خطاب لبني إسرائيل، يأتي المقصد الثّالث: عرض الشّرائع، فنختم المقصد الثّاني الآن، ونبدأ –إن شاء الله– بالمقصد الثّالث.

---

(١) سورة البقرة: ٢١.

(٢) سورة البقرة: ٤٠.

بسم الله، سنقرأ من الآية (١٥١) إلى الآية (١٦٢):

{كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ (١٥١) فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ (١٥٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ (١٥٧) ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ (١٦١) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ}[1].

بسم الله، الآن ركّزوا معي؛ لأنّنا سنراجع الجزء الأخير الّذي مضى، ونبني عليه هاتين الآيتين، الّتي هي: {كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا}.

لاحظوا: {كَمَآ} **معناها:** أنّ هناك نِعَم ذُكرت، وهذه النّعم عظيمة كإرسال الرّسول، نِعَم الله –عزّ وجلّ– عظيمة، ومنها إرسال الرّسول.

انظري الجملة السّابقة: خاتمة الآية (١٥٠)، ماذا قال الله عزّ وجلّ؟ {نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥٠) كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا}[2] معنى ذلك: أنّ ما مضى من نِعَم الله –عزّ وجلّ– مُضاف إليه إرسال الرّسول.

دعونا نرى: ما هي النّعمتان؟

الله –عزّ وجلّ– بيّن صحّة دين النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– بوجوه؛ أوّلها: أنّ دين النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– هو دين إبراهيم عليه السّلام. وهذا مضى معنا في النّقاش.

---

(١) سورة البقرة: ١٥١_١٦٢.

(٢) سورة البقرة: ١٥٠_١٥١.

أنتم الآن في الجزء الّذي فيه المقصد الثّاني، كان مقسّما إلى أربعة أقسام.

- كان عندنا المقصد الأوّل: دعوة النّاس كافّة. آخر المقصد الأوّل كانت قصّة آدم عليه السّلام.
- بدأت الآيات من الآية (٤٠) إلى الآية (٤٨)، فيها مقدّمة لخطاب بني إسرائيل الّذي كان **هو**: المقصد الثّاني.
- هذا المقصد الثّاني كان طويلًا من الآية (٤٠) إلى الآية (١٦٢) لكنّه قُسّم إلى أربع أقسام:

القسم الأول: ذكر سالف نِعَم الله، هذه الّتي فيها: {إِذْ}، {إِذْ}، من عند إنجائهم من فرعون، إلى أن أنزل عليهم المنّ والسّلوى...إلى آخر نِعَم الله عليهم.

القسم الثاني: الكلام عن المعاصرين، وعشرون سببًا لقطع الطّمع في إيمانهم، وكانت بداية المقطع هنا: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ}.

القسم الثالث: الشّاهد الآن: ولاية المسلمين لإبراهيم -عليه السّلام- أو ذكر سالف المسلمين، الّذي هو إبراهيم عليه السّلام.

هذا الجزء الآن الثّالث دليل على صحّة دين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. **وهذه كانت الجملة الّتي كتبناها. يعني**: الله -عزّ وجلّ- بيّن صحّة دين النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بمجموعة أمور منها:

- أنّ هذا الدّين هو دين إبراهيم -عليه السّلام- فكان الواجب قبوله؛ ولذلك قال الله عزّ وجلّ: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}[1] هذه الآية دليل على صحّة دين الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- لأنّ دين الرّسول **هو**: دين إبراهيم.
- أيضًا كان من الأدلّة على صحّة دين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ أنّه دين آمن بجميع الرّسل: {قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ}[2]هذه الآية فيها دليل على صحّة دين النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يعني عندما يأتيك أحد يقول لك: (وما أدراني أنّ الدّين الإسلامي هو الصّحيح؟ لماذا لا تكون النّصرانيّة أو اليهوديّة؟) عندك جوابان:

---

(١) سورة البقرة: ١٣٠.

(٢) سورة البقرة: ١٣٦.

الجواب الأوّل: أنّ دين النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- موافق لدين إبراهيم، الّذي يرجع له دين اليهود والنّصارى، فالنّصرانيّة واليهوديّة كلّها تعود إلى دين إبراهيم -عليه السّلام- لأنّ إبراهيم -عليه السّلام- له ابنان إسماعيل وإسحاق، وإسحاق له يعقوب، ويعقوب أتى منه الأسباط، من هنا بنو إسرائيل، يعودون لمن؟ يعقوب لمّا حضرته الموت، أبناؤه قالوا أنّهم على دين إبراهيم. **إذًا معنى ذلك:** أنّ الّذي سيكون على دين إبراهيم سيوافق الصواب، إذًا كانت اليهوديّة على دين إبراهيم، والنّصرانيّة على دين إبراهيم، جاء الإسلام فكان على دين إبراهيم -عليه السّلام- إذًا نحن مجتمعون.

الجواب الثّاني: لماذا لا نكون معًا، نحن نكون مسلمون، وهم يكونون نصارى، والبقيّة يكونون يهودًا؟ يظهر لنا: {قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا} يعني: الإسلام، {وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ} معنى ذلك: أنّ المفروض: أنّ الّذي يؤمن، يؤمن بكلّ الّذي نزل من عند الله، عائدًا إلى دين إبراهيم عليه السّلام.

إذًا: سنلتقي عند إبراهيم، ونقول: (آمنّا بالحنيفيّة، وبكلّ من أرسل الله)؛ الّذي يكون على هذا، يكون على الدّين الصّواب.

وتظهر الرّدود أكثر في آل عمران، يعني: في البقرة بداية الرّدّ على هذه الدّعوى: (أنّه ما أدراني أنّ هذا الدّين هو الصّحيح؟ لماذا لا تكون اليهوديّة أو النّصرانيّة؟) مبدأ الرّدّ كما اتّفقنا أنّ اليهوديّة والنّصرانيّة والإسلام يعودون إلى ملّة إبراهيم، الجواب الثّاني المجمل: أنّ كلّ الّذي على دين إبراهيم يستسلمون، ويسلمون، لمن أرسل الله من رسول؛ فنحن نؤمن بموسى وعيسى والأنبياء من قبله، مع إيماننا بالرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- والّذي يؤمن بإبراهيم لابدّ أن يؤمن بكلّ الأنبياء الّذين أرسلهم الله عزّ وجلّ. هذه بداية الإجابة وهناك تفاصيل للإجابة تامّة الوضوح في آل عمران.

إذًا لا نكون مؤمنين بالرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- إلّا إذا آمنّا بـ{إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ} و{مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ} ويوسف، وكلّ الأنبياء الّذين ذُكروا لنا، سواء كانوا من بني إسرائيل، أو من غيرهم. **يعني:** نحن **مثلا:** لا نؤمن بالنّبي صالح، وبالنّبيّ هود، لأنّ أصولهم عربيّة! ونأتي إلى موسى وعيسى ونقول: (لا! لا نؤمن بهم لأنّ أصولهم يهوديّة!) هل نحن نقول هكذا؟!

لا! نحن لا نفرّق بينهم! فكلّ واحد عاد إلى دين الأب، دين إبراهيم لا يفرّق بين الأب ودين أبنائه كلّهم.

فإذًا: هذان جوابان على صحّة دين النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فيما مضى.

دعونا أمليكم الباقي الآن: ثمّ إنّه -سبحانه وتعالى- حكى شُبهتان لليهود؛ لأنّنا سياق الكلام عن اليهود، ماذا كانت الشّبهة الأولى؟ الهداية: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ}: **حصر الهداية باليهوديّة والنّصرانيّة.**

انظروا: {كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ}: هو نفس الكلام اليوم: (لماذا الإسلام هو الصّحيح؟ لماذا لا تكون اليهوديّة أو النّصرانيّة؟)! هي نفسها قوله تعالى: {كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ}. هل واضح؟

فنحن أسّسنا الآن للإجابة، وبعد {كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ} هناك جواب تفصيليّ، ويتّسع أكثر كما اتّفقنا في آل عمران. الآن ما هي الشّبهة الثّانية الّذي ألقوها على المسلمين؟ تحويل القبلة، ولكنّنا لن نقول: تحويل القبلة، **وإنّما نقول:** إنكار النّسخ عمومًا، يعني: هم يُنكرون أنّ الأديان فيها نسخ، أنّ الله -عزّ وجلّ- ينسخ دينه. ماذا يعني ينسخ؟ التغيير، مثالها: تحويل القبلة. بعدما كان اتّجاه القبلة بيت المقدس، أصبحت اتّجاه الكعبة، فأنكروا النّسخ، وجعلوا نموذج هذا: القبلة!

سنقول الآن لأجل أن نصل إلى مكاننا هنا: ففصّل -سبحانه وتعالى- في الجواب عن الشّبهة - هل رأيتم كم كلّمنا الله عن مسألة القبلة؟ كلامًا طويلًا فصّل في الجواب عن الشّبهة **- وختم ذلك الجواب بقوله:** {وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ}[1]. بعدما فصّل -سبحانه وتعالى- في الإجابة، أخبر أنّ هذا من إتمام النّعمة. **معنى ذلك: أن الإجابة على شبهتهم من عظيم نِعَمِ الله.**

فإذًا هذه الآية السّابقة: أنّه من عظيم نِعَمِ الله أنّه عندما يأتي أحد بشبهة؛ تجدين في القرآن جوابها. ومن أعظم النِّعَمِ الّتي أتى منها العزّ والشّرف: إرسال النّبي محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- إلى هذه الأمّة.

إذًا: هاتان الآيتان: آخر الآية (١٥٠) وأولّ الآية (١٥٢) في التّذكير بِنِعَمِ الله عزّ وجلّ، الّتي هي متّصلة بإرسال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم؛ **إذًا:**

(١) سورة البقرة: ١٥٠.

- دين كلّما أتى أحدهم بشبهة وجدت في كتابك إجابة عليها.
- ورسول أُرسل يتلو الآيات ويزكّي ويُعلّم الكتاب.

إذًا: هذه من أعظم النّعم. ولذلك أتت الآية (١٥٢): {فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ}[١]، الآن الشّكر هنا على النِّعَمُ الدّينيّة.

إذًا: هكذا انتهينا إلى الآية (١٥٢) التي تعتبر خاتمة للكلام عن الشّبهتين.

هيّا أذكّركم مرّة أخرى: أين الشّبهتان؟

{وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ}. الآية (١٣٥) الجزء الّذي قبل هذه الآية ماذا كان؟ ما هو العنوان الأوّل؟ حاضرة المسلمين، **المقصود ماذا؟** بعدما وصلنا الله -عزّ وجلّ-نحن - بإبراهيم -عليه السّلام- بيّن مكر بني إسرائيل مع النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ومع الصّحابة. هذا المكر دائر في إلقاء الشّبه؛ فهذا المقطع كلّه دائر حول هذه المسألة. ماذا كان حاضرهم مع المسلمين؟ هل تركوهم يُسلمون ويمشون في حالهم؟! لا طبعًا! كلّما أرادوا أن يستقيموا على دينهم ألقوا عليهم شبهة؛ بحيث أنّهم يتشتّتون عن دينهم! **الشّبه نوعان، واضحة هنا:**

النّوع الأوّل: تعظيم دينهم على دين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

وابقوا مركّزين لأنّ هذا هو الّذي تتعرّضون له! لأنّ هذا ليس تاريخًا وتسمعونه؛ وإنّما هذا واقع وتعيشونه!

النّوع الأوّل: تعظيم دينهم على دين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. ما هو عنوان هذا التّعظيم؟ {كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ} **هذا هو**: تعظيم دينهم على دين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

النّوع الثّاني: التّشكيك في ديننا، **مثاله:** مسألة القبلة هنا.

أنت الآن عندما تعيشين في الواقع؛ هل الّذي يُخالفك في الاعتقاد، يتركك واعتقادك؟ الجواب: لا! العداوة في الاعتقاد فوق العداوة في النّسب والدّم. يعني: ممكن أن يكون من دمك ولحمك لكنّه عاداك في الاعتقاد؛ فإنّ عداوته تفوق العداوة في الدّم، بمعنى: لو أنّ الدّماء تكون مختلفة؛ فإنّه ممكن أن تحصل هناك عداوة لأنّ كلّ واحد يريد أن يرتفع على الثّاني، لكن حتّى لو كانت دماء واحدة، وكان بينكما اختلاف في العقيدة؛ فإنّه لن يتركك وعقيدتك! وإنّما لابدّ أن يزعجك طوال الوقت في اعتقادك.

(١) سورة البقرة: ١٥٢.

ما صورتها؟ ما صورة هذا الإزعاج؟ إلقاء الشّبه، وما له إلّا صورتان:

الصّورة الأولى: يرفعون دينهم على دين الإسلام {كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ}!

الصّورة الثّانية: يأتون إلى ديننا ويشبّهون عليه!

ثمّ إنّه ليس هناك أيّ صورة أخرى تأتي أبدًا إلّا هذه، وهذه! هذا إذَا كانت في مسألة الدّين. أمّا في مسألة الشّهوات؛ فإنّ هذا شأن آخر، يعني: هذه طريقة أخرى لتشتيت النّاس عن دينهم، لكنّها ليست من جهة العقيدة؛ فإنّه من جهة العقيدة هناك نوعان –لا تنسوا هذا وأنتم تحفظون المقطع– ما هما هذان النّوعان؟ تعظيم دينهم، والتّشكيك في دين الإسلام.

أنت الآن عندما تنظرين لخاتمة المقطع لابدّ أن تتذكّري: أنّ كلّ نعمة لها حاسدون! ونعمة الدّين الّتي هي أعظم نعمة لها حاسدون! فلأجل ذلك فإنّهم لا يتركونك في حالك؛ لابدّ أن يهاجمونك بهذه الطّريقتين.

أنت ما هو المطلوب منك؟ هيّا اقرؤوا مرّة أخرى الآيتين اللّتان ختم بهما السّياق، الّتي هي في مكاننا: الآية (١٥١) والآية (١٥٢).

{فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥٠) كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ (١٥١) فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ}.

الآن أنتم لابدّ أن تكونوا مستوعبين لهذا المقصد العامّ؛ لأجل أن تكون الخاتمة تامّة الوضوح مترتّبة على بعضها: أعداؤك الآن الّذين يعادونك في العقيدة لن يتركوك تتمتّعين بنعمة الله في الاعتقاد السّليم! ماذا سيفعلون؟ سيلقون عليك الشّبه؟ كم نوعا في الشّبه؟ أو كم نوعا أصليّا؟ نوعان:

- إمّا أنّ النّوع الأوّل يشبه: {كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ} الّذي هو تعظيم دينهم على دين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.
- النّوع الثّاني: إلقاء الشّكّ والشّبه على دينك، مثل: حادثة تحويل القبلة. في حادثة تحويل القبلة كانوا يقولون للصّحابة: (ما هذا الدّين الّذي كلّ يوم له رأي؟! وماذا عن الّذين ماتوا وما صلّوا للقبلة، ماذا يكون حالهم؟! وماذا عن صلاتكم الأولى، إذَا كانت صحيحة إذًا صلاتكم الثّانية

خاطئة! وإذَا كانت الثّانية هي الصّحيحة إذًا الأولى خطأ!) بهذه الطّريقة! واستعملوا الأسلوب العقلي في إلقاء الشّبه.

أنتم الآن ما هو موقفكم؟ عُدّوا معي ما هو موقفكم؟ ما هو موقف المسلمين من أعدائهم الّذين يلقون الشّبه؟

الموقف الأوّل: {فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى} لا تخافوا منهم، ولا من شبههم، حتّى لو هاجمتك شبهة لا تعرف ما طريقها، ماذا تفعل؟ تعلّق بالله، لكن لا تخف من الشّبه، ولا تخف على الدّين؛ فإنّ هذا الدّين باقٍ رغم أنوفهم! لكن المهمّ أنت لا تترك الدّين! أمّا الدّين فلن يضيع.

الموقف الثّاني: الشّعور بأنّ الدّين نعمة يجب شكرها؛ ولذلك قال الله عزّ وجلّ: {وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ} معنى ذلك: أنّ شعورنا تجاه الدّين بأنّه نعمة، سيكون سببًا لإتمام الله لنا هذا الدّين، يعني أنتم لا تخافوهم، وانتظروا أنّ الله -عزّ وجلّ- يتمّم نعمته عليكم بثباتكم على الدّين؛ وإنّ الدّين لا يخسر عندما يخرج أحد منه، فالخارج هو الخسران! والدّين منتصر بنا أو بغيرنا، لكن العزّة لمن نصر الدّين؛ ولذلك قال الله عزّ وجلّ: {كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ} يعني: هذه نعمة، كون أنّ الدّين يُزال عنه كلّ شبهة، مثل: نعمة إرسال الرّسول؛ كأنّه يُقال: هذه ليست أوّل نعمة أن يُزال عنكم الشّبه، من النّعم إرسال الرّسول.

فأنت الآن عندما يمرّ عليك ذكر النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- الصّلاة والسّلام عليه -صلّى الله عليه وسلّم- لابدّ أن يكون من قلب حارّ يشعر أنّ الله أنعم به. والهجر لسنّة النّبيّ، ولامتثالها، ولجعله أمامنا ونحن خلفه؛ الهجر حتّى في شعورنا هذا مصيبة كبيرة! ودعونا نقرّب المسألة من أجل أن تشعري بالنّعمة،

تصوّري: الإنسان وهو في الحجّ خارج مع حملته، وهذه الحملة ستخرج طبعًا وتدخل في زحام النّاس؛ لأجل أن تصل إلى المناسك. أليست كلّ حملة تضع لها مرشدًا؟ وأنت عندما تمشين عيناك يكونان على المرشد الّذي يحمل الرّاية؛ لأجل أن لا تضيعي، وأنت لو التفتّ عنه يمنة أو يسرة انتهى أمرك، ضعت ولا تدري أين تذهبين! وليس لديك حتّى تصوّر للمكان! تصوّري: حتّى الّذي يكون حافظًا للمنطقة، يعني الّذي يكون حافظًا لعرفة، ومزدلفة، ومنى؛ فإنّه في وقت الحجّ، كلّ المعالم تختلف من كثرة النّاس! فهذه بالضّبط **مثل**: زحمة الأفكار، وزحمة الاتّجاهات، أمور كثيرة تشتبه عليك، تظنّين أنّ هذا هو هذا! هذا يستعمل الآية فقط لأجل مصلحته، وهذا يستعمل الآية في فهم يفهمه هو لأجل أن يستشهد به على تجارته، وهذا، إلخ...

لو ما اعتقدت أنّ متابعة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- تنجيك في وسط هذا الزّحام، وأنّه -صلّى الله عليه وسلّم- رافع للواء الحمد وأنت سائرة وراءه، لو ما شعرت أنّها نعمة؛ فإنّه لابدّ أن يأتي هذا البرود تجاه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم! لابدّ أن يأتي شعور: (بأنّني على الطريق، لست بضائعة!) وهذه مشكلة كبيرة فعلى الأقلّ الّذي يشعر بنفسه أنّه ضائع سيبحث ويسأل حتّى يهتدي، لكن الّذي يمشي ولا يدري أنّه ضائع! هذا أكيد أنّه سيتوه! فعدم تقديرنا لنعمة إرسال الرّسول مصيبة عظيمة؛ أنت على أقلّ تقدير كلّما صلّيت وسلّمت على رسول الله؛ تصوّري: أنّك لا تستطيعين أن تخرجي من الضّياع والتّيه إلّا بمتابعته صلّى الله عليه وسلّم.

وتصوّري: والنّاس يزدحمون في أفكارهم! وأنت ماذا تفكّرين؟ أو ماذا تقولين؟ أو ماذا تعتقدين؟ لأجل أن لا تكوني ريشة في مهبّ الرّيح وقتما تأتيك الأفكار، ولا تدري بأيّ طريقة صحيحة تفكّرين بها؟! دائمًا تصوّري: أنّه -صلّى الله عليه وسلّم- رافع للرّاية، وأنّك أنت وراءه متابعة له مهما طال الزّمان وَبَعُدَ -صلّى الله عليه وسلّم- في الزّمان، لكن تبقى رايته مرفوعة بيضاء، والّذي يتابعها يجتمع معه يوم القيامة صلّى الله عليه وسلّم.

المهمّ: فإنّ هذه من النّعم العظيمة الّتي أنعم الله بها علينا؛ ولذلك: {فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ} يعني من الكفران عدم الإحساس بأنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- نعمة. طبعًا هذا يتبعه أمور كثيرة في مسلكنا، لكن دعونا فقط اليوم نصحّح على الأقلّ ما يجب علينا أن نحمله في عقيدتنا.

الآن قيل لك: لا تخشي أعداءك: {فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي}.

سنرى كذلك: ما هو المطلوب منّا تجاه الأعداء الّذين يكيدون بنا؟

تأتي الآية (١٥٣) والآية (١٥٤)، اقرئيهما لأجل أن نعرف ما هو دورنا؟

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ}[1].

فإذًا مع أعدائنا ماذا سنفعل؟ لن نخاف منهم، وسنشعر بنعمة الدّين الّذي يزيدنا تمسّكًا به. أليسوا هم يشكّكوننا لنشعر بعدم العزّة في اتّباع الدّين؟! ونشعر أنّه مجرّد تكاليف! **فماذا يُقال؟** لا! لا تستجيبي حتّى نفسيًا لآثار شبه العدوّ، بل افتخري، واعتزّي، واعلمي أنّه نعمة يجب شكرها.

(١) سورة البقرة: ١٥٣_١٥٤.

فإذا عرفت: أنّها نعمة يجب شكرها، وعليك أن تعتزّ بها، تذكرها دائمًا {فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ} ما الّذي يساعدنا على هذا الشّأن؟ {ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ}. وفي الصّلاة طوال الوقت قولي: {رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً}(١) وأنت أصلًا في الصّلاة من بدايتها تقولين: {ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ}(٢) فلأجل ذلك كانت الصّلاة شيئا مهمًّا جدًّا لأجل أن تبقي شاعرة بنعمة الله عليك.

{إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} يعني كونك تسمعين هذه الشّبه وتتمسّكين بدينك، وتعتزّين به، وتبذلين جهودك لأجل أن تتعلّمي، وتدفعي عنك الشّبه؛ هذا من الصّبر، وهذا سبب لمعيّة الله لك، سبب أنّ الله يكون معك، لا تتركي نفسك على هواها؛ النّفس تتأثّر بالشّبه مهما كان عمرك، ومهما كان حالك في العلم، لكن أنت ماذا تفعل؟ استعن بالصّبر والصّلاة، وفي كلّ مرّة تستعين فيها بالصّبر والصّلاة، يزيد في قلبك الإيمان ويطرد عنك شرّ الشّيطان، والله يكون معك؛ والّذي يكون معه الله؛ لا يمكن أن يتولاّه الشّيطان؛ بل سيكون وليّه الله. **إذًا** هذه مرحلة من مراحل معاملة الأعداء، الّذين لن يتركونا في حالنا!

الآن ستتصعّد معاملة الأعداء، هذا التّصعيد أين مكانه؟ ما هو وضعه؟ وصلنا إلى درجة أنّ الأعداء اعتدوا علينا بالقتال، معناها أننا بدأنا بالشُّبه وانتهينا بأنّهم يقاتلونا! عندما تأتي في هذا الموقف يُقال لك: {وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ} المقصد أنّك تعتقدين هذا الاعتقاد؛ من أجل أن يحصل الثّبات.

إذًا أعداؤنا يبدؤون معنا بالشُّبه، وبعد ذلك ينتهون بالقتال.

سنقرأ الآن من الآية (١٥٥) إلى الآية (١٥٨):

يقول الله عزّ وجلّ: {وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ (١٥٧) ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}(٣).

---

(١) سورة آل عمران: ٨.

(٢) سورة الفاتحة: ٦.

(٣) سورة البقرة: ١٥٥_١٥٨.

الآن هذه الآيات تعلّقها بالآيات السّابقة من عدّة جهات، وكلّها جهات بديعة، **أوّلًا**: سنبدأ بتصوّر أنّ الآيات السّابقة جاء فيها الأمر بالشّكر، أين؟ {ٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ} ثمّ ناسب الكلام عن الصّبر، ذُكرت النّعمة فذُكر الشّكر، والحياة ليست كلّها على ما يوافق العبد؛ فهناك في الحياة ما يخالف هوى العبد، فجاء الصّبر قرينًا للشّكر، **فكما قيل هناك** في الآيات الأمر بالشّكر أتى الأمر أيضًا بالصّبر.

ونحن أصلًا في سياق الرّدّ على الأعداء، **فقيل**: إنّ الأعداء سيصعّدون علاقتهم بنا فيقاتلوا فأنتم الآن أمام الّذين يُقاتلون ويُقتَلون، لا تقولوا عنهم: {أَمۡوَٰتُۢ} ولا تعتقدوا أنّ قتاله سبب لموته؛ إنّما هذا قدر وأتى في شريف المواطن، **يعني**: أنّه يموت بهذه الحالة؛ فإنّ هذا من الحالة الشّريفة.

وعلى كلّ حال؛ الصّبر يكون في مثل تلك الحال، ويكون في هذه الحال أيضًا الّتي سنناقشها الآن في الآية (١٥٥).

ولابدّ أن تعرفوا أنّ هذه الآية تقضي على كلّ ما يتّصل باليأس؛ بل هي علاج لظاهرة مثل ظاهرة الانتحار. يعني ظاهرة الانتحار عندما تظهر في مجتمع مسلم؛ ماذا يكون ينقصهم؟ ينقصهم اعتقاد هذه الآية، اعتقاد هذا المعنى. ما هو هذا المعنى؟ أنّ الحياة لابدّ أن يكون فيها من نقص! من قال لك أنّ الحياة الأصل فيها الكمال؟! من كذب عليك وقال لك بأنّ هذه هي الحياة؟!

ولكن أين تكمن المشكلة؟ المشكلة طبعًا تفاقمت وبدأت تظهر، وتظهر آثارها السّلبيّة الواضحة! طوال الوقت المشاهير تُؤخذ لهم صور، ويُشعرون الشباب أنّهم سعداء، دائمي السّعادة! وأنّه ليس هناك شيء ينقصهم! وأنّك لأجل أن تكون سعيدًا ينبغي لك فقط حفنة من المال عظيمة! وهكذا ستكون سعيدًا وينتهي الأمر! فصاروا حين يجدون الصعوبات؛ يقارنون أنفسهم بهؤلاء، فيجدوا أنّهم لا يعيشون! فيبادروا بإراحة أنفسهم، فيميتوا أنفسهم! وهكذا يكون الشّباب قد غُشَّ غَشًّا عظيمًا في تصوّر أنّ الحياة تمشي على نظام واحد وما فيها إلى الّذي يحبّونه!

فهذه الآيات تحلّ المشكلة: ماذا قال عزّ وجلّ؟ {وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ} وهذه الآية فيها من المؤكّدات ما فيها! لابدّ أن يحصل بلاء، وأنواع البلاء: خوف، جوع، {نَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ} وبعد ذلك في النّهاية؟ {وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ} وليس الّذي ينتحر! الصّابر الّذي يعلم أنّ مثل هذا يأتي من عند الله، وأمامه الأجر العظيم؛ وسيتبيّن في السّياق الآن: ما هو هذا الأجر العظيم؟

الآن {بَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ} الّذي وصفهم: {ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ}: التّسليم، ومعرفة أنّنا نحن عباد لربّ العالمين، وأنّه في غاية الحكمة، وأنّه يقلّبنا على خير حال.

أوّلًا: جاء الوعد: {أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ} يعني المصاب جاء لأجل أن يُختبر إيمانك، أنت تيقّن بحكمة ربّ العالمين، ورحمة ربّ العالمين؛ إذَا نجحت في هذا سيأتي من ورائه الصّلوات والرّحمة؛ بل سيأتي من ورائه الّذي هم بصدد البحث عنه! أليسوا هم يحبّون الرّفعة والشّهرة؟ جاءك ما يدلّك على ذلك: {إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ} هيّا خذي فقط هذا الجزء واربطيه بالسّابق، ماذا تقولين؟ الآن فيما مضى الكلام كان عمّن وقع عليهم مُصاب، وأنّهم لمّا صبروا قيل لهم: {أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ} وبعد ذلك قيل: {إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ}.

{ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ} تذكّرك بمن؟ بهاجر {إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}

تذكّرك بهاجر! كيف ارتفع شأنها؟ هل لمّا قتلت نفسها وولدها؟ لا! وإنّما لمّا صبرت على تلك الحال، الّتي ليس فيها أيّ سبب للأمل! يعني على تقدير النّاس فإنّ الأمل كان أقلّ ما يمكن؛ حتّى أقل من الصّفر! تصوّري في صحراء، أو على الأصحّ في وادٍ تحيط به الجبال، لا صوت إنسيّ ولا حتّى طير! فكان مثل هذا إذَا لم يكن هناك إيمان؛ كان موجبًا لليأس! لكن ما كان عندها يأس، بل كانت آخذة بالأسباب حتى الغير متصوّرة! فكانت تسعى ذاهبة وعائدة؛ فيكون صبرها هذا، ومسلكها، منهجًا للنّاس إلى يوم القيامة! كلّ الّذي يأتي بين الصفا والمروة عابدًا يسعى كسعيها، وهي ما قصدت الشّهرة! لكنّ صبرًا فائقًا أتى برفعة فائقة! رفعة وليست الشّهرة الكاذبة الّتي يضحكون بها على النّاس! إنّما معاملة مع ربّ العالمين، كان الله معها: {إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ}، {أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ} ثمّ رفعها الله هذه الرّفعة {إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ}، {مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ} تصوّري سلوك هذه المرأة الّتي صبرت أصبح من الشّعائر! فأيّ واحد عنده قليل أو كثير من اليأس، يقارن نفسه بهاجر! ويقارن الأسباب الّتي مفقودة عندها تمامًا، والأسباب الكثيرة الّتي موجودة عنده.

والمشكلة: أنّ هذه الثّقافة جاءتنا من المادّيّة الّتي تجعل الإنسان لا يرضى عن ربّه إلّا إذَا أعطاه الّذي يريده، أمّا الدّين والإيمان فأصلًا لا يفكّر فيهما على أنّهما نعمة! وهو لا يدري: أنّه إذَا عطّش روحه الّتي بين جنبيه، وغذّى بدنه؛ فإنّه في يوم من الأيّام هذه الرّوح ستبكي بكاءً مريرًا حتّى تميته! المشكلة: أنّ الرّوح ليس لها صوت؛ بينما البدن له صوت، فبطنه تصدر صوتًا لأنّها جائعة، لسانه يجفّ لأنّه عطشان،

وبدنه يثقل لأنّه يريد أن ينام، فهذا كلّه له صوت، ويعبّر عنه، ويحسّ به، لكنّ روحه الّتي بين جنبيه تبكي مسكينة، مثل الطّفل الصّغير لا تعرف تعبّر عن شيء؛ إلّا أنّه تأتيه نوبات بكاء وحزن واكتئاب، وهو لا يفهم لماذا؟! والسّبب: عدم التّركيز على الرّضا بالله!

فهنا تكمن المشكلة: أنّ الإنسان يرضى بالله، وبما قسم الله؛ لأنّ الدّنيا ليست هي مكان الخلود؛ وإنّما هي ممرّ. ومكانك هنا مهما كان في العلوّ أو في السّفول، عندك أو ما عندك، شبعان أو لست شبعان، ليس مقياسًا لمكانك الأخير؛ أنت فقط فكّر أنّك ستذهب إلى هناك وترتاح من هذا كلّه، كنت صغيرًا أو كبيرًا، ولا تقول لنفسك: (هل أنا سأبقى طوال حياتي هكذا؟!) وما أدراك ماذا ستكون طوال الحياة؟! ما هو طول الحياة؟ أنت تتصوّر أنّ الحياة طويلة! مثل الحياة كما ذُكر عن نوح -عليه السّلام- لمّا عاش ذاك العمر الطّويل، قيل له: (كيف هي الحياة؟) قال: (كأنّي دخلت من باب وخرجت من الآخر!) وهو قد عاش مع قومه {أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}[1] هذه فقط كانت مدّة الدّعوة! ومع ذلك رأى حياته كأنّه دخل من باب وخرج من الآخر!

وكلّ واحد فينا يقف عند عمره ويفكّر: الّذي وصل إلى سنّ الخمسين يتذكّر الماضي كلّه وكأنّه لا شيء! والّذي وصل إلى سنّ السّتّين يتذكّر الماضي كلّه وكأنّه لا شيء! والّذي وصل إلى العشرين، والثّمانية عشر، والسّبعة عشر، كذلك فإنّ الماضي بالنّسبة له وكأنّه لا شيء!

فهو قانون واحد: أنّ الحياة لن تطول مهما كانت، وكلّها ستكون مجرّد ذكريات، لكن المهمّ أن تكون مرتفعًا في السّماء! ولن ترتفع في السّماء بأنّك تأكل وتشرب طوال الوقت، ورضاك عن الله لأنّه أَكَّلَك وشَرَّبَك! ارضَ عن الله، وابحث عن هذه الرّوح ونمِّها وستكون لك منزلة عند ربّ العالمين. وها هي زمزم كلّ يوم تشهد لهذه المرأة الصّالحة على ما صبرت وقبلت أمر الله؛ فكانت أحسن مثالًا يوصف للصّبر، وأحسن مثالًا يوصف للرّضا بالله، والثّقة به سبحانه وتعالى.

المقصد من وراء هذا كلّه: أنّ التّمسّك بالدّين ليس أمر هيّنًا سهلًا، لكنّ الّذي وراء التّمسّك بالدّين شيء عظيم في الدّنيا والآخرة.

---

(١) سورة العنكبوت: ١٤.

هذا من وجه: {إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ}، ومن وجه آخر: {فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ} إذًا هكذا عدنا إلى صلتنا بالبيت، وببناء البيت، وبإبراهيم عليه السّلام؛ تأكيدًا لعلاقة هذا الدّين بإبراهيم عليه السّلام.

فإذَا علّقت الآيات وعدت بها إلى القبلة بها ونِعْمَ، إذَا علّقتها بالصّبر بها ونِعْمَ، يعني: هي لها علاقات من وجوه عدّة بما سبق، لكن يكفينا هذا النّقاش الآن {إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ}.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ}[1].

هكذا عدنا إلى أوّل السّياق تمامًا، الّذي هو الآية (٤٠). دعونا: نرجع إلى الآية (٤٠) ونقارن بينها ،وبين الآية (١٥٩):

{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ} أمام: {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ} أكملي الآية (٤١). {وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ}. ما معنى {مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ}؟ الّذي أتى به النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- موافقا لما هو موجود عندكم من الكتاب.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ} هؤلاء ماذا فعلوا؟ هم أُمروا في البداية أن يُؤمنوا، ويصدّقوا ويتيقّنوا بصدق النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بدليل ماذا يصدّقون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ يعني هل كلّما جاءهم أحد سيصدّقون أنّه نبيّ؟ أم أنّ النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- معه أدلّة؟ نعم، {مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ}. يعني أتى النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بآيات في الكتاب، حتّى في نفسه، في بدنه الشّريف، كانوا هم يعلمون هذه الآيات، حتّى خاتم النّبوّة، هذا الّذي كان في ظهره الشّريف، كان مشهورًا عندهم، عند اليهود، وعند النّصارى؛ فجاءت العلامات في دعوته، وبدنه، وهجرته، في كلّ شيء، يعرفونه بدليل أنّ اليهود أتوا إلى يثرب - كما مرّ معنا كثيرًا- لأنّهم يعرفون أنّ هذا المكان هو مهجر خاتم المرسلين. يعني كانوا يعرفون مكان هجرته قبل أن يأتي النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قبل أن يهاجر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم! فمعنى ذلك: أنّ كلّ هذه الأدلّة الواضحة كانت مصدّقة لما معهم.

(١) سورة البقرة: ١٥٩_١٦٠.

لماذا لم يظهروها ولم يبيّنوها؟ **أو على الأصحّ**: ماذا فعلوا أمام إظهارها وبيانها؟ كتموها. **فإذًا**: أمام الآية (٤٠) بعد كلّ هذا النّقاش، ختم النّقاش معهم أنّهم كتموا الأدلّة {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ}.

وهم في البداية لاطفهم ربّ العالمين، وقال لهم: {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ}، {أَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ}، {وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ}، وقال لهم: {وَإِذۡ}، {وَإِذۡ}، و{أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ}، و{أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ}، وكلّ هذا السّرد وهم على نفس حالهم، ماذا يفعلون على نفس حالهم؟ {يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ}.

إذًا: من الآية (٤٠) إلى الآية (١٥٩) **الّذي هو آخر النّقاش**، صار ماذا وصفهم الآن الأكيد؟ {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ} معنى ذلك أنّك أنت بعدما شهدت هذا كلّه أكيد أنّك تريدين أن تلعنيهم {أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ} من؟ {ٱللَّٰعِنُونَ}. و{ٱللَّٰعِنُونَ} هذا أمر مشترك، يعني كلّ المؤمنين يلعنون كلّ من كتم {ٱلۡبَيِّنَٰتِ}. حتّى أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال: (لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنْ الْيَهُودِ لآمَنَ بِي الْيَهُودُ)[1] عشرة من اليهود الّذين كنوا محيطين به، يعني تصوّري لم يكملوا حتّى العشرة! من كثرة حقدهم على الحقّ، وعنصريّتهم؛ فالّذي كان منهم إنّما هو عنصريّة أنّه: (كيف يأتي رسول من غيرنا؟!) وهم لو جاء منهم هل كانوا سيؤمنون به؟! ألم يكن عيسى عليه السّلام منهم؟! ومع ذلك اتّهموه بما اتّهموه! وهم من طبعهم -كما مرّ معنا- أنّهم يقتلون الأنبياء! فهم كاذبون إن قالوا: (لو جاء منّا لآمنّا به).

إلّا أنّ الله -عزّ وجلّ- أراد رحمة العالمين: ولم يجعله منهم؛ لأجل أن ينتشر الدّين ويكون خاتم المرسلين من العرب الّذين إذَا تبنّوا الحقّ كانوا فرسانه، لكن الله يرسل لنا من يتبنّى الحقّ، نسأل الله أن يجعلنا ممّن يتبنّى الحقّ، ويكون منّا من يتبنّى الحقّ حتّى يكون فرسانه. الله المستعان!

ومع كتمانهم للحق، انظري لرأفة الله ورحمته: {إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ} جاءت هذه الثّلاثة شروط الخاصّة بهذه الحال، يعني كلّ مرّة تكون المسألة فيها كتمان للعلم، وفيها إظهار للباطل، وكتم للحقّ؛ لابدّ من أن تحصل هذه الشّروط الثّلاثة، الّتي هي:

١) التّوبة عن العودة لمثل هذا.

٢) إصلاح الباطل.

---

(١) أخرجه البخاريّ (٣٦٧٢).

٣) بيان الحقّ.

{فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} لأنّ هناك أجندة مرسومة لبعض المشاهير عمومًا في العالم الإسلامي؛ أنّه يتقدّم خطوتين كذا، ثمّ يترك، **مثلًا**: لو كانت امرأة من المشاهير، تظهر حجابها، ودينها، وأنّها استقامت، وتؤمن أوّل النّهار، وبعد ذلك ترجع إلى الوراء وتكفر آخره! يعني تخلع حجابها بعد فترة من الزّمن، ما الّذي يحصل؟ طبعًا هذا أثره أكبر من مجرّد الفسق! مثلًا: آتي أقول لابنتي: (هذه فاسقة ما تصلح أن تكون قدوة!)؛ لكنّها الآن تركت وتحجّبت وقالت للنّاس: (الهداية! الهدية!) فلمّا شعروا أنّها ثقة، ماذا فعلت؟ عادت إلى الوراء! يؤمنون وجه النّهار ويكفرون آخره.

على كلّ حال، هذه من الأجندات المعروفة!

الشّاهد الآن: أنّنا نفترض أنّها جاءتها توبة صحيحة، ما هي الشّروط؟ {تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ}، تبيّن أنّها كانت على باطل، تبيّن أنّ هناك من أغراها بكذا...

{فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} على كلّ حال، أيّاً كانت الذّنوب والمعاصي، والجرائم، والشّرك، والكفر، وكلّ هذا؛ مادام الإنسان حيًّا، **إذًا**: هناك باب للتوبة، هذا الأصل، والله أعلم من يصلح للتّوبة، ومن لا يصلح؟!

الآن من سيشترك معهم؟ من سيشترك مع أولئك القوم في هذا اللّعن؟ الآية (١٦٢):

{إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ (١٦١) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ}[1].

إذًا هؤلاء {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ} **فهذا دليل للكلام السّابق**: طالما أنّك ترى أحدًا حيّا مهما كان حاله؛ فلازال هناك أمل في توبته. لكننا قلنا: {يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ} هؤلاء السّابقين! إلّا الّذين تابوا. **أي ستقولين**: (لعنة الله على كلّ من يكتم الحقّ)؛ فالّذي باقٍ على كتم الحقّ ومستمرّ عليه؛ يدخل في اللّعنة، والّذي يتوب يخرج من ذلك.

هل فقط أهل الكتاب الّذين {يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ}؟ مَن كذلك؟ الآية هنا تقول: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ} ما هي جريمتهم؟ **جريمتهم**: الكفر. صحيح

(١) سورة البقرة: ١٦١_١٦٢.

هذه جريمة عظيمة، لكن غالبًا أنّ الكفر يتعدّى إلى الدّعوة إليه! إلى الصّدّ عن سبيل الله؛ مجرّد الكفر بدون حتّى نداء النّاس إلى خلافه، كون الإنسان يكفر –والعياذ بالله!– هذا بنفسه سبب لإضلال النّاس، يعني عندما يجد النّاس هذا كافر، وهذا كافر، هذا كافر؛ يشعرون بكثرة سواد الكفر، فيضعف جانب الإيمان؛ فلهذا استحقّوا اللّعنة. فالّذين يكتمون الحقّ استحقّوا اللّعنة، والّذين يبقون على الكفر متمسّكين به لا يقبلون الحقّ، ويكثّرون سواد الكفر؛ هؤلاء أيضًا يستحقّون اللّعنة كونهم أصرّوا على كفرهم مع بيان الحقّ لهم.

بالوصول إلى الآية (١٦٢) نكون انتهينا تمامًا من المقصد الثّاني، وهو الّذي بدأ معنا من الآية (٤٠)، **وواضحة لكم العلاقة**: هناك نودي بنو إسرائيل، **وختام المقصد قيل**: حُكم عليهم بأنّهم كتموا ما أنزل الله، فاستحقّوا بذلك اللّعنة.

جزاكم الله خيرًا.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مدارسة سورة البقرة

"دارسة إجماليّة"

أ.أناهيد بنت عيد السميري

"الجزء الثّالث"

اللّقاء الثّالث عشر: الخميس ١٨ جمادى الأوّل ١٤٤٠ هـ

"مدخل إلى مدارسة المقصد الثّالث (١٦٣_٢٨٣)"

بسم الله الرّحمن الرّحيم

"مقدّمة"

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكّلنا على الله، نكمل ما بدأناه في دراسة **سورة البقرة**، والآن بعدما عرفنا أنّ السّورة فيها مقدّمة وفيها أربع مقاصد. انتهينا من المقصد الأوّل، والمقصد الثّاني، والآن نبدأ في دراسة المقصد الثّالث.

- **المقصد الأوّل**: دعوة النّاس كافّة إلى الإسلام.
- **المقصد الثّاني**: دعوة بني إسرائيل خاصّة إلى الإسلام. وكان هذا الجزء هو جزء العقيدة؛ أن يبدؤوا أوّلًا بالاستسلام للدّين. ثمّ يأتي النّقاش عن الشّرائع في:
- **المقصد الثّالث**: فبدأ الكلام عن الشّرائع من المقصد الثّالث، من الآية (١٦٣) إلى الآية (٢٨٣).

الآن هذا المقصد له مدخل، مسألة الكلام عن الشّرائع لها مدخل.

مدخل المقصد الثّالث من الآية (١٦٣) إلى الآية (١٧٧)، هذا يُعتبر مدخل الشّرائع. بعد العقائد، بعد أن دُعي النّاس كافّة إلى الإسلام، وبعد دعوة بني إسرائيل للإسلام؛ أن استسلموا لدين الله. **جاء بعدها الكلام عن**: دين الله، الّذي **هو**: الشّرائع.

بسم الله، سنقرأ من الآية (١٦٣):

{وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ

وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ}[1].

هذه الآن مقدّمة للكلام عن الشّرائع؛ **والشّرائع، معناها: أن يستسلم الإنسان لطريقة ومنهج نزل من عند الرّحمن، معتقدًا أنّ هذه الطّريقة، وهذا المنهج منجاة له.** وهذا من رحمة الله عليه، وحصول الاستسلام للطّريقة الّتي نزّلها ربّ العالمين، يعتمد على اعتقادك بأنّه إلهك الّذي يجب عليك أن تطيعه.

بمثال بسيط: من الشّريعة والمنهج الّذي تعيشه، أبسط شيء أن تأكل بيمينك وليس بشمالك، حين تفعله، تفعله وأنت معتقد أنّك تطيع الله الّذي شرّع، ولأنّ هذا من آثار رحمة الله منهجًا تعيشه في الحياة، لكن لأجل أن أقول: (سمعنا وأطعنا) لابدّ أن أكون معتقدة أنّه إلهي الّذي أحبّه وأعظّمه؛ ومن ثمّ أطيعه.

فلذلك أوّل جملة في مقدّمة الشّرائع: الله -عزّ وجلّ- قال: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ}. ما معنى {إِلَٰهٌ}؟

{إِلَٰهٌ}: هو المحبوب المعظّم لكمال صفاته، يعني الّذي تَأْلَهُهُ القلوب، بمعنى: تحبّه وتعظّمه. لماذا تحبّه وتعظّمه؟ **لما له من كمال الصّفات.**

وأنت هكذا خُلقت، رضيت أم لم ترضِ؛ هذه خلقتك وجبلّتك، أن تحبّ الكُمَّل، تحبّ المحسنين، تحبّ المعطين، وأنّك تعظّم كلّ عظيم وكامل الصّفات.

فلماذا تذهب النّفوس لغير الله؟ لأنّها لا تعلم عن الله. لماذا تعظّم غير الله؟ لأنّها تكون مخدوعة. لماذا تتعلّق وتحبّ غير الله؟ لأنّها تكون مخدوعة! ومع الأيّام يكتشف الإنسان أنّ هذا الشخص الّذي كان يعطيه كلّ محبّته، لا يستحقّها، وعندما يُخدع، ويخرج من هذه الخديعة، وكلّ مرّة يكتشف أنّ النّاس لا يستحقّون المحبّة والتّعظيم؛ يعرف أنّه لا يستحقّ المحبّة والتّعظيم إلّا الله، **والسّبب واحد واضح:** نقص المخلوقين وكمال الخالق؛ لأنّك جُبلت على هذه الجبلّة.

وأودّ منكم أن تتصوّروا هذه المسألة بوضوح لأنّه سيأتينا بعد ذلك الكلام التّفصيلي: الإله **هو:** المحبوب المعظّم. لماذا تحبّه وتعظّمه؟ لكماله، تحبّه وتعظّمه لكمال صفاته؛ لأنّ هذه جبلّتك وطبيعتك أن تحبّ الكامل؛ من فطرتك؛ لأنّ أيّ شيء ناقص فإنّك لا تحبّه.

---

(١) سورة البقرة ١٦٣_١٦٧.

ودائما نضرب في هذا مثالًا: أنّه لو نزلت عليك ضيفة، وأنت ضيّفتها بكعكة، ثمّ إنّك تركتها في المطبخ وأتيت تستقبلينها، لكن أحد أبنائك ذهب وأكل منها قليلًا! فالآن ما هي مشاعر الضيفة تجاه هذه الكعكة؟ تشعر بأنّها أهملتها، والّذي أكل منها يقول لك: (وهل الضّيفة ستأكل هذا كلّه؟!) وأكيد لن تأكل هذا كلّه؛ ولكن لابدّ أن تُقَدَّمَ كاملة! لماذا؟ لأنّنا لا نتحمّل النّقص! وهكذا فكّري في كلّ شيء! يكون أحد أتى لك بهديّة جميلة وما أحسنها، ثمّ إنّك تكتشفين بعد ذلك أنّه أخذ منها قليلًا! ما هي مشاعرك؟ تشعرين بالغضب، لكن كيف تغضبين وقد أتى لك بهديّة؟! لأنّه فيها نقص. فهذه هي الطّبيعة الإنسانيّة: لا تتحمّل النّقص! لا تتعلّق إلّا بالكامل.

وأنت تصوّري كيف يصير دائمًا هذا حين يكون الإنسان قليل الخبرة. انظري: الطّالبة حين تكون في المرحلة الابتدائيّة وتحبّ معلّمتها، تأتي تصفها لأمّها كأنّها ملاك، لماذا؟ لأنّ النّفس الإنسانيّة لا تتحمّل، فهي لا تحبّ وتتعلّق إلّا بالكامل، فإذَا ما كان كاملًا حقيقة – فالنّاس ليسوا كاملين حقيقة! – هي ماذا تفعل؟ تكمّله، وترفعه لفوق؛ عندمه ترفعه لفوق فإنّ نفسها تقبل أن تتعلّق به، لكنّه إذَا كان دنيئًا فإنّ نفسها ما تقبل التّعلّق به! فلابدّ أن تصفه أوّلًا بالكمال، وبعد ذلك تقبل أن تتعلّق به.

ولذلك الإنسان كلّما ازداد تجربة، وكان ناضجًا في تجربته؛ **تكون النّتيجة**: أنّه يكتشف أنّ النّاس لا يستحقّون أن يتعلّق بهم، وأنّ الله وحده هو الّذي يستحقّ التّعلّق به. وكلّ مرّة يمرّ بموقف يزداد الأمر يقينًا، ويتأكّد بأنّ النّاس ناقصون وأنّ الكامل هو ربّ العالمين.

ولذلك طول عمر الإنسان إذَا كان على إيمان وتقوى فإنّه يجعله أقرب لليقين؛ لأنّ قليل التّجربة لا يكون عنده يقين مثل الّذي تقدّمت تجربته في اكتشاف النّاس والأحوال. وأنت ناقص والنّاس ناقصون! فلا أنت تصلح أن تكون إلهم الّذي تتّجه القلوب إليه، ولا هم يصلحون أن يكونوا الآلهة الّتي تتّجه القلوب إليها، لكن مع ضعف البصيرة يحصل هذا!

ما ناتج تأليه الله؟ يعني: إذَا كان هو المحبوب المعظّم لكمال صفاته. إذَا حصلت المحبّة والتّعظيم، سيلزم منها الطّاعة؛ فهذا كلّه على كلمة: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ} **يعني**: كم نتيجة خرجنا بها؟ **معنى** {إِلَٰهٌ}: المحبوب المعظّم، لأيّ سبب محبوب ومعظّم؟ لكمال صفاته. النّتيجة؟ يلزم الطّاعة. صار أكيدًا أنّ هذه المقدّمة للشّرائع.

{وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ} **إذًا**: إذا كان هو المحبوب المعظّم، وجبت طاعته وحده لا شريك له. انتهينا هكذا من الآية (١٦٣).

أتت الأدلّة الآن على أنّه هو الإله الواحد الّذي {لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ}، **يعني**: أنت ستعتبرين الآية (١٦٤) أدلّة، ليس لدلالة القدرة؛ وإنّما لدلالة الوحدانيّة، تكون القدرة هي دلالة الوحدانيّة.

إذًا: الآية (١٦٤): الأدلّة الّتي تدلّ على استحقاقه للألوهيّة.

وأذكّركم، لماذا ابتدأت الآيات بأدلّة استحقاق الألوهيّة؟ لأنّ الشّرائع، تحتاج الطّاعة، نقطة البداية فيها: التّوحيد، التّأليه، المحبّة، التّعظيم. الشّرائع تأتي فيها الطّاعة، من أين تأتي الطّاعة؟ من المحبّة والتّعظيم. وهذه المسألة معروفة مفهومة؛ فأنت إذَا أحببت أحدًا لابدّ أن تحصل الطّاعة، يعني: لا نصير أصحابًا نحبّ بعضنا وكلّما قالت لي شيئًا أقول لها: (لا!)! وكلّما تقترح عليّ بأن نذهب يمينا أقول لها: (لا!)! مع كثرة (لا!) ماذا سيصير؟ تقول لها: (اذهبي أنت لوحدك!).

فالنّفس من طبيعتها إذَا حصلت المحبّة حصلت المُطاوعة، صاروا يطاوعون بعضهم؛ لأنّهم أنداد. لكن حين تحبّين ربّ العالمين؛ ستكون النّتيجة: الطّاعة، ستستسلمين. فحين تجدين عندك نقصًا في طاعة الله، نقصًا في الانكسار بين يدي الله؛ لابدّ أن تعرفي أنّ الّذي ينقصك: معرفة الله الّتي تأتي بمحبّة الله. وحين تنقصك معرفة الله؛ فإنّ ربّنا يربّيك، يربّيك، يربّيك، إلى أن تعرفي أنّه لا يوجد أحد غيره يستحقّ أن يُحبّ ويُعظّم. وسيتبيّن هذا في الآيات القادمة.

إذًا الأدلّة الّتي تدلّ على كماله –سبحانه وتعالى– الّتي من ورائها يستلزم حصول الطّاعة:

الدّليل الأوّل: {إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ}.

الدّليل الثّاني: خلق {ٱلْأَرْضِ}. وخلق السّماوات، وخلق الأرض وراءها متعلّقات.

الدّليل الثّالث: {ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ}.

الدّليل الرّابع: {ٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ}.

الدّليل الخامس: {مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ}.

الدّليل السّادس: إحياء {ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} بالماء، وسنرى كيف أنّ هذا يلحق بما قبله أو ينفرد عنه.

الدّليل السّابع: {وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ}.

الدّليل الثّامن: {تَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ}.

الدّليل التّاسع: {ٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ}.

دعونا نتناقش أوّلا: {فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ} آية، في خلق {ٱلۡأَرۡضِ} آية، في {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} آية، نريد أن نفهم ما معنى آية؟ **ودعونا نرى:** {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} الّذي هو أمر واضح بالنّسبة لكم.

ما معنى {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} آية؟ ما معنى كونه آية؟ ما معنى آية أصلًا؟ علامة ودلالة على قدرة الله.

الآن أنت حين ترين {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} تتأكّدين بأنّ هناك فاعل فعلها؛ لأنّ هذه مفعولة. {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} مفعول.

فالسّؤال الّذي يتبادر للذّهن: أنّه مادام هناك مفعولات، **إذًا:** لابدّ لها من فاعل. ونحن نتكلّم هكذا كأنّنا نناقش أحدا مُلحدا، ينكر وجود الله! **ونقول له:** في الواقع هناك مسلّمات أنت تحملها تدلّك على هذه الحقيقة؛ بل إنّ هذه الحقيقة أوضح من الشّمس لو كان الإنسان عنده عقل سليم، أوّل ما ترين مفعولًا لابدّ أن تقول إنّ هناك فاعل! هل هناك أحد يقول غير هذا الكلام وهو عاقل؟! غير العاقل ممكن أن يقول كلامًا كثيرًا! نحن نتكلّم عن العاقلين: أيّ أحد عاقل يدخل إلى مكان ويجد فيه أفعالًا؛ سيكون متأكّدًا بأنّ هذه الأفعال فعلها فاعل، ليس هناك شكّ في ذلك أبدًا!

ولذَا في الحياة جعل الله –عزّ وجلّ– مفعولات كثيرة تدلّك –هذه كلمة آية الآن– تدلّك على الفاعل، تدلّك على مسألتين معًا:

القاعدة الأولى الفطريّة: تدلّك أوّلًا على أنّ هناك فاعل.

نحن الآن نبيّن معنى {لَّأٓيَٰتٖ}. آيات معناها: علامات دالّة، هذه العلامات الدّالّة أنت تفسّرينها على أيّ أساس؟ **دعونا:** الآن نفرّق بين العاقل والّذي ليس له عقل؛ فالّذي ليس له عقل يرى كلّ هذه الأشياء ولا يعرف كيف يفسّرها! بينما الّذي عنده عقل؛ فإنّ عقله الّذي وُهِبَ له فيه قواعد لا تتغيّر أبدًا، هذه القواعد هي الّتي تفسّر الّذي أمامه.

أهمّ قاعدة من هذه القواعد: أنّ الفعل إن وُجد دلّ على الفاعل، وأنّ صفة الفعل تدلّ على صفة الفاعل.

المسلّمات الفطريّة الّتي بها نفسّر ما حولنا. أوّل مسلّم فطريّ: أنّ كلّ فعلٍ لابدّ له من فاعلٍ.
بطريقة ثانية: إن وُجدت المفعولات دلّت على الفاعل.

القاعدة الثّانية الفطريّة: صفة المفعول تدلّ على صفة الفاعل. أنت انظري للمفعول نفسه، فأنت ماذا تدركين؟ المفعول. تريدين أن تعرفي الفاعل.

دعونا نرى: هذه القاعدة بعيدًا عن تطبيقها في حقّ الله، **دعونا نراها عمومًا:** لأجل أن تعرفي أنّها قاعدة فطريّة أنت أصلًا تعاملين الحياة كلّها بها.

دعونا نقول: لو أنت الآن قرأت رواية فيها جريمة قتل؛ هذه الرّواية الّتي فيها جريمة قتل معتمدة على هاتين القاعدتين. كيف يكتشفون القاتل؟ **انظروا إلى القاعدتين وأخبروني:** كيف يكتشفون القاتل؟ هل هم يعرفون من الفاعل؟ لا، فهم لا يعرفون من الفاعل، لكن مادام هناك جريمة؛ إذًا هناك فاعل! هناك مجرم! كيف يكتشفونه؟ **انظري أيّ واحدة من القاعدتين؟** ينظرون في المفعول، ينظرون في كلّ ملابسات المفعول. وبعد ذلك يصلون إلى الفاعل. أليست هذه الرّوايات الّتي تقرؤونها؟ بلى، فإنّها تعتمد على هذه القاعدة؛ فهذه القاعدة أنت تتعاملين معها غصبًا عنك! فليست هذه قاعدة تستعملينها في حقّ الله، ثمّ بعد ذلك لا تستعملينها! أيّ أحد عاقلٍ، مسلمًا كان أو كافرًا؛ خُلق على هذه المسلّمات، فهي من القواعد العقليّة الموجودة في عقلنا.

استعمليها الآن في حقّ الله: عندما تجدين مفعولات، حين تنظرين لها تدلّك على أنّ هناك فاعل ولابدّ **الأمر الثّاني:** تدلّك على صفة الفاعل.

انظري: لصفة {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} فكّري في هذا الآن، أليس عندنا {فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ} **هيّا انظري في:** المفعول، **وكلّميني عن:** الفاعل؛ أمّا أنّكم تقولون لي على طول: (أنّه يدلّ على القدرة!) لا، ليس هذا هو المقصود؛ طبّقي القاعدة.
القاعدة تقول: تأمّلي في المفعول؛ لأجل أن يدلّك على صفة الفاعل بالتّفصيل.

صِفْنَ لي: {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ}؟ الآن أنتم ألا يختلف عليكم {ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ}؟ هل {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} شيء مُلَاحَظٌ بانتظام أم أنّه مُرتبك؟ هل {ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} السّنة الماضية كان مثل هذه السّنة

في نفس الوقت؟ يعني شتاء السّنة الماضية، متى كان المغرب يؤذّن فيه؟ في نفس الوقت، صمنا السّنة الماضية في شوّال في صيام السّتّ، عند السّابعة وعشر دقائق، ثمّ بدأ ينزل دقيقة، دقيقة، إلى أن وصل إن يؤذّن عند السّادسة إلّا ربع. وبعد ذلك بدأ يعود؛ هل عاد هكذا فجأة؟! هل قفز؟! لا، وإنّما عاد دقيقة، دقيقة، من دون أن تشعري بصورة لطيفة جدًّا! إلى أن يأتي رمضان -إن شاء الله ربّنا يمدّنا بالصّحة والعافية والإيمان- ونجد أنفسنا سنصوم عند السّابعة إلّا ربع، إلّا عشرة، إلّا سبعة. يعني هذا كلّه في حياتنا متكرّر!

إذًا: الانتظام لا يتغيّر أبدًا؛ ففي كلّ سنة نصلّي المغرب من السّادسة إلّا ربع، أو إلّا ثلث، إلى أن نصل أن نصلّي المغرب عند السّاعة السّابعة وعشر دقائق مثلًا وكلّ سنة يمرّ علينا، وكلّ سنة نشعر بأنّ التّغيير يمرّ علينا بحالة من اللّطافة! إذًا الانتظام، هذه مسألة واضحة.

الأمر الثّاني: هذا الشّيء منتظم وكذلك بلطف! بخفاء! يعني أنت لا تشعرين كيف تغيّرت هذه الدّقائق، وكلّ يوم تزيد دقيقة، وتصل إلى هذه النّتيجة بأن يكون هذا الوقت! حتّى أنّه كثيرًا ما تفاجئين أنّه الآن صار تقريبا يؤذّن عند السّاعة السّادسة وخمس دقائق، بعد أن كان يؤذّن من قريب السّادسة إلّا ربع! لكن له حركة منتظمة لا يشعر بها الإنسان.

فإذًا: صار الانتظام، اللّطف، هل هناك مصالح في هذا تعود على الأرض، وتعود على النّبات، وتعود على الخلق؟ أكيد هناك مصالح.

هل رأيتم الشّيخ السّديس، حين خطب خُطبة في الشّتاء؟ كيف أنّ المصالح تعود على الخلق من جهة عباداتهم، ومن جهة دنياهم، حتّى الدّنيا؛ فالدّنيا والدّين ينتفع بهذا الصّيف والشّتاء. ومنها أنّ الشّتاء ربيع المؤمن، يعني أيّ أحد كان عليه قضاء، أيّ امرأة كان عليها قضاء، وهي قد تكون لديها صعوبة في أن تقضي، وما قضت طوال الأيّام، كان المفروض تقضي صيامها أيّامها في هذه الأيّام، لماذا؟ لأنّ اليوم قصير؛ فكانت هذه أيضًا من المصالح؛ وإنّ هذه من المصالح الّتي ذكرها أهل العلم: أنّ الإنسان الّذي يكون عنده جهد في الصّيام، ويكون من الصّعب عليه أن يصوم، يؤخّر قضاءه للوقت الّذي يكون في الشّتاء، وهو ربيع المؤمن.

فالمقصد الآن: أنّ {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} يدلّ على صفات كثيرة في ربّ العالمين، منها:

- **الانتظام:** يدلّ على حكمة الله.

- **التّغيير اللّطيف**: يدلّ على لطف الله.
- **علم الله**: هذا فيه مصالح كثيرة لنا يدلّ على رحمة الله.
- **وبالإجمال تظهر**: قدرة الله.

على كلّ حال؛ فإنّ **الشّيخ السّعدي رحمه الله**، في تفسيره[1] لهذه الآية، قال كلاما بديعًا جدّا يدلّ على كمال الله.

المقصد الآن: أن تراعي الآيات. ماذا تفعل لك الآية؟ المفعول يدلّ على الفاعل، فدلّت كلّ هذه الآيات على الله وعلى كمال الله. والمفروض أنّ {ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ}، يعني البدر الّذي يخرج في اللّيل، والشّمس الّتي تبزغ كلّ يوم، أكيد أنّه فيها من الجمال ما فيها رغم تكرّرها، يعني انظري: القمر يصبح بدرًا كلّ شهر؛ ومع ذلك فإنّك ما تشبعين من النّظر إليه! والشّمس كلّ يوم تخرج، وتغرب، والنّاس الهاوين لا يشبعون تصويرًا لها، لا في شروقها! ولا في غروبها!

هذا كلّه دليل على أنّ الله -عزّ وجلّ- جعل في مخلوقاته الجمال ظاهرًا؛ لأجل أن تصل أيضًا إلى حدّ التّمتّع! وليس فقط أنّك تستفيد؛ وإنّما كذلك تصل إلى حدّ التّمتّع! فهذا كلّه من آثار رحمة الله.

النّاظر الآن إلى هذه المخلوقات من المفروض: أن يعطي لنفسه فرصة طويلة؛ من أجل الاستدلال منها على كمال الله، ومن ثمّ محبّة الله، ومن ثمّ تعظيم الله، ومن ثمّ طاعة الله؛ ولذلك قال الله عزّ وجلّ: {إِنَّ فِي}... كلّ هذا {لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ}؛ فقط هذا هو الشّرط أنّها: {لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ} ما صفتهم؟ {يَعۡقِلُونَ}.

الآن دعونا نأخذ هذه الجملة على العكس: لو ما كان لك آية في كلّ هذا ولا استرشدت به، ولا عرفت ربّ العالمين، ولا أصلًا فكّرت فيه! ماذا ينتفي عنك؟ العقل؛ لأنّ مثل هذه الأشياء المبهرة إذا لم تلفت نظرك؛ يصير هذا دليل على نقص عقلك.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن _ السعدي (١٣٧٦ هـ) _ تفسير الآية (١٦٤) سورة البقرة: (﴿وَ﴾ في ﴿ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض، من أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير، تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره، الذي تفرد به، وعظمته، وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.)

ولذلك هناك قاعدة في الأصل هي قاعدة فلسفيّة، لكنّها تصلح لنا في هذا المقام، **وهي**: أنّ عدم الاندهاش من المدهش؛ نقص في العقل!

فإنّ هذه الأشياء من المفروض أن تكون مدهشة، حتّى مع اعتيادها وتكرارها تكون مدهشة، لكن المشكلة في نقص العقل، وانشغاله بالكلام الّذي ليس له معنى، من أجل ذلك ما كانت آية، ولا دلالة، وما عرفنا الله من خلالها.

يبقى هنا سؤال نؤكّد عليه: هل الآيات والدّلالات للقوم الكافرين؟! هل تقولين: (أنا مؤمنة فلا أحتاج أن أتأمّل في الآيات!)؟ تذكّروا أواخر آل عمران، الآية الّتي قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: (وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا)[١] {إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ}[٢] معناها أنّ أولي الألباب ماذا يفعلون؟ {يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ} يقولون: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ}[٣].

إذًا لا تنخدعوا هذه الخديعة وأنّ التّفكّر إنّما هو لأجل الدّخول في الإيمان؛ لا! إنّما التّفكّر في الأصل وصف للعقلاء، وصف للمنتفعين بالآيات، وصف للمؤمنين؛ ولذلك لو استفتحتم **الجاثية** سيظهر لكم الأمر أكثر، كيف أنّ الله قال: {لَّأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ}[٤] {وَءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[٥] فالّذي تكون الشّمس، والقمر، والنّبات، والأرض، والمطر، آية له؛ هذا هو المؤمن، هذا هو المتيقّن الّذي كلّما رآها يقول: (وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنا أشهد أنّه كامل الصّفات، وأنا أشهد أنّه على كلّ شيء قدير، وأنا أشهد أنّه سميع بصير، وأنا أشهد أنّه لطيف) يزداد شهادة، فتصير الشّهادة عند هذا الإنسان كأنّه رآها بعينيه، كأنّه رأى لا إله إلّا الله بعينيه.

ولذلك: {شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ} ومن كذلك؟ {وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ}[٦]، كيف شهد {أُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ}؟ هل تعرفون ما هي الشّهادة؟ يعني تصوّري: أنت في المحكمة عندما تذهبين يقولون لك: (تعالي شاهدة) ماذا يعني شاهدة؟ يعني: أمّا أنّك رأيت أو أنّك

(١) تفسير القرآن العظيم _ ابن كثير (٧٧٤ هـ) _ تفسير الآية (١٩٠) سورة لبقرة.
(٢) سورة آل عمران: ١٩٠.
(٣) سورة آل عمران: ١٩١.
(٤) سورة الجاثية: ٣.
(٥) سورة الجاثية: ٤.
(٦) سورة آل عمران: ١٨.

سمعت. وأنت تقولين: (أنا أشهد أن لا إله إلّا الله) ماذا يعني ذلك؟ أنّك رأيت وسمعت هذا الحقّ حتّى أصبح ليس بالغيب؛ وإنّما أصبح شهادة! كأنّني أعيشه.

فإذًا: هذا كلّه لو تأمّلت فيه؛ ستجدين أمرين واضحين في كلّ هذا الّذي ذكره الله عزّ وجلّ:

- **من جهة: ترين آثار كماله سبحانه وتعالى:** {فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ}، في خلق {ٱلۡأَرۡضِ} في {ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} في {ٱلۡفُلۡكِ} تجدين آثار كماله.
- **وكذلك تجدين شيئًا مهمًّا جدًّا: آثار رحمته سبحانه وتعالى.** يعني لمّا خلق الإنسان؛ هيّأ له، يسّر له كلّ الأوضاع الّتي يعيش فيها في أحسن حال.

فإذًا: سنصل إلى نتيجتين أصليّتين، ما هي في كمال الله؟ أنّه –سبحانه وتعالى– كامل الصّفات، وأنّه –سبحانه وتعالى– رحم عباده؛ فهو من آثار رحمته –سبحانه وتعالى– رحمن ذو رحمة واسعة، رحيم ذو رحمة واصلة؛ فإذَا ظهرت لك عظمته، وإذَا ظهرت لك رحمته؛ **يُتصوّر:** أن تقع في قلبك محبّته سبحانه وتعالى؛ لأنّ هذه النّفس تحبّ الّذي يُحسن إليها. إذَا كانت هذه الحال الّتي من المفروض أن يكون عليها الخلق؛ ستكون من المفاجأة هذا الصّنف الّذي سيأتينا الكلام عنه الآن.

من هم هؤلاء الصّنف الّذين ستكون مفاجأة أن يكونوا موجودين؟! {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا} ما هي الصّفة الّتي أعطوها للأنداد ليصلوا أن يحبّوها كحبّ الله؟ ما هي الصّفة؟ أكيد تدور حول صفتين:

١. العظمة من جهة.

٢. والرّحمة والإحسان من جهة أخرى.

بناء على هذا، أريد منكم أن تُعلّلوا لي: لماذا يعبد الهندوس البقرة؟ لابدّ أن يكونوا قد أعطوها أمرين معا: **من جهة:** أعطوها صفات العظمة، **ومن جهة:** أعطوها صفة الرّحمة والإحسان! كيف يعطون البقرة صفة العظمة؟! من أين سيعطونها صفة العظمة؟! هذه هي الأوهام! يوهمون أنفسهم بذلك، يحكون خرافات الشّيطان، أو يَخْبُكُ لهم إيّاها، يعني: هذه البقرة تُشبه ما يعبد النّاس في القبور، حين تأتين إلى قبر مثل قبر السّيّد البدوي وهذا من القبور المشهورة في مصر! هذا القبر صاحبه أصلًا فاسق! فاسق بمعنى: يشرب الخمر ويقع في كذا! وكذا! من المحرّمات! ومن هول ما يقع فيه أنّه في يوم من الأيّام دخل

فيه على المصلّين وبال في المسجد عنوة وإهانة للمسجد! وبعد ذلك يدفنوه في قبر، ويطلبون منه الحاجات، ويعبدونه من دون الله! كيف؟! هذا هو السّؤال! كونك تنظرين للأمر مجرّدًا فإنّك تقولين: (كيف؟!) لكنّه من نقطة البداية حتّى يصبح معبودًا؛ فإنّ الشّيطان ينسج لهم خرافات وقصص وحكايات تسبّب تعظيمه، ثمّ ينسج لهم نوعًا آخر من أنّ الطّلب منه يسبّب الرّحمة، يسبّب الشّفاء، يسبّب العطاء، إلخ...ولا ينجو من هذا إلّا "**عاقل**" انتفع من عقله.

وإلّا مثلًا: سأقرأ لكم جزءًا من كلام غاندي؛ غاندي هذا شخصيّة مشهورة في الهندوس، ويعلّل لماذا يعبد البقرة؟! **دعوني**: أقرأ لكم لتعرفوا فقط كيف يفكّر؟! يقول: (عندما أرى بقرة لا أعدّني أرى حيوانًا؛ لأنّي أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع. وأمّي البقرة أفضل من أمّي الحقيقيّة من عدّة وجوه، فالأمّ الحقيقيّة ترضعنا مدّة عام أو عامين وتطلب منّا خدمات طوال العمر نظيرًا لهذا، ولكن أمّنا البقرة تمنحنا اللّبن دائمًا، ولا تطلّب منّا شيئًا مقابل ذلك سوى الطّعام العادي. وعندما تمرض الأمّ الحقيقيّة تكلّفنا نفقات باهظة، وأمّا أمّنا البقرة فلا نخسر لها شيئًا ذا بال) عندما تمرض! (وعندما تموت الأمّ الحقيقيّة تتكلّف جنازتها مبالغ طائلة، وعندما تموت أمّنا البقرة تعود علينا بالنّفع كما كانت تفعل وهي حيّة، لأنّنا ننتفع بكلّ جزء من جسمها حتّى العظم والجلد والقرون) ثمّ بعد ذلك هو يريد أن يحسّن وضعه! يقول لك: (أنا لا أقول هذا لأقلّل من قيمة الأم، ولكن لأبيّن السّبب الّذى دعاني لعبادة البقرة)! ماذا تقولون؟! لا تعليق! فقط لأجل أن تعرفوا: {لَّآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ} فأوّل ما يذهب العقل تظهر هذه الأمور!

والمشكلة: أنّ النّاس يتصوّرون أنّ هذا العقل الّذي نتكلّم عنه، كيف يكون ليس موجودًا مع وجود الاختراعات؟! هذه الاختراعات وإلخ...ممكن أن تخرج حتّى من شخص مريض بمرض التّوحّد! **يعني**: أكيد أنّكم تسمعون وترون أنّه كثيرًا من مرضى التّوحّد وهو مرض عقلي يستطيعون أن يحفظوا القرآن كاملًا! أو تجدهم في بلاد الكفر يحفظون أشياء هائلة؛ بحيث حين يسألونهم يكون هذا الشّخص كأنّه عبارة عن كمبيوتر.

فالقدرة على الإنجاز في أمور أنّه يكون هناك عقل الرّشد، الّذي يختار الإنسان أحسن الحسنين ويبتعد عن أسوأ السّيّئين، فعقل الرّشد ليس هو عقل الإدراك، فإنّه حتّى الّذين يكونون ناقصين في عقولهم وقدراتهم يمكن أن ينجزوا.

مثلًا: أنتم تعرفون كلمة الشّخصيّة النّرجسيّة؟ الشّخصيّة النّرجسيّة كأنّها أسطورة أصلا؛ ولأجل ذلك جاءت منها كلمة النّرجس. أسطورة تقول أنّه كان هناك أمير في الاغريق يرى نفسه شيئًا عظيمًا، ولأنّه يرى نفسه شيئًا عظيمًا؛ فاخترع حوله هالة، وصار يقود النّاس ويفعل إنجازات في بلاده، لماذا؟ لأنّه يرى في نفسه شيئًا عظيمًا!

كيف مات هذا؟ ذهب يشرب من غدير ماء، فرأى صفحة وجهه في الماء، فازداد إعجابًا بنفسه وبقي يتأمّل، ويتأمّل في نفسه على هذه الحال حتّى مات عليها! وكان يمتلك ما يُسمّى: بزهرة النّرجس. **فسمّوه**: الشّخصيّة النّرجسيّة، بناء على ذلك.

الشّاهد أنّ هذا اعتلال نفسي، يعني يكون مريضًا نفسيًّا الّذي يفعل مثل هذا.

بعد ذلك فإنّه لابدّ أن تفهمي: أنّ هناك إحصائيّة كبيرة قريبة تدلّ على أنّ عددًا كبيرًا من المنجزين في العالم عندهم هذا الاعتلال النّفسي، وأنّهم شخصيّات نرجسيّة! يعني: أناس كثيرون ممّن اخترعوا وصارت لهم مكانة، هم نرجسيّون! بمعنى: مرضى نفسيّين، أصحاب اضطراب!

فالإنجاز ليس شرطًا أن يكون دالّا على العقل! يعني: ممكن أن يكون مضطربًا نفسيًّا وينجز!

ولأجل أن تتصوّري المسألة فهم دائمًا ما يضربون هذا المثال: أيّهما أذكى: الحرامي أم الشّرطي؟ الحرامي لأنّه يتحايل! أكيد أنّها لم تعد صفة مدح؟! يعني: إذًا الذّكاء سينحاز إلى جانب الشّرطي، سنقول: هذا لأجل أنّه يؤدّي مهمّته، لكن هذا النّوع من الذّكاء حين ينحاز إلى جانب هذا الّذي لا يعرف كيف يستعمله، أو ما استعمله بناء على القيم العليا؛ صار صفة ذمّ!

فإذًا هكذا تظهر لك القاعدة الواضحة: أنّ الذّكاء والغباء لهما عامل مهمّ، ضابط مهمّ، **وهو**: أنّ القيم العليا تحكمه! لكن ماذا أنتظر من ذكي ثمّ بعد ذلك يذهب يسرق؟! أو ماذا أنتظر من ذكيّ وفي النّهاية تكون مافيا للأطبّاء! ويذهب يدور حول العالم يشتري النّاس، ويقطّعهم ويبيع أعضاءهم! ماذا أنتظر من هؤلاء؟! ألا تعرفون مافيا بيع الأعضاء؟! فإنّ بيع الأعضاء مبني على مافيا الأطبّاء! بيع الأعضاء هذه تجارة رقيق جديدة لكن مُلْتَفَّة!

يذهبون للهند مثلًا –فالهند مشتهرة بذلك– ويقولون لهم: (أنت ما عندك عمل؟ بائس! وعائلتك تنتظرك؟ بِعْ نفسك!) **يعني**: إذَا كانوا طيّبين يقولون له: (بِعْ كليتك!) وإذَا كانت المسألة صعبة يقولون له: (إذًا بِعْ نفسك!) يبيع نفسه ويأخذ المال ويعطيه لأهله، ويأتي ليشرّحوه، وأحيانا بطريقة فظيعة!

أحيانا يقتلونه، يعطونه إبرة ويقتلونه! وأحيانا بطريقة فظيعة لأنّهم يريدون أجزاءً حيّة من الدّماغ، **فتصوّري**: كيف يهشّمون الدّماغ وهو حيّ؛ لأجل أن يخرجوا هذا الجزء حيّ بدون أن يتأثّر بأيّ أداة! مأساة! هؤلاء هم الأذكياء! لكن ليس كلّ الأذكياء! فصار هذا ليس ذكاء؛ وإنّما صار هذا هو الغباء! – وإن شاء الله – يأتينا تعليق آخر على هذه المسألة، ويتبيّن لكم الأمر أكثر.

المهم الآن وصلنا: أنّ العقل له ميزة، العقلاء ليسوا هم الأذكياء، **لا تخلطوا الأمرين معًا**: ليس العقلاء هم الأذكياء، ممكن أن يكونوا أذكياء ومضطربين نفسيّا!.

نرجع للآية: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا} ماذا؟ {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ} على أيّ أصل {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ}؟ كما اتّفقنا الآن: يرفعونهم، ويعظّمونهم، ويكلّمونكم عن المنفعة الّتي فيهم، ومُرّي على التّاريخ وستجدين: الفراعنة عبدوا الشّمس! الفراعنة عبدوا نهر النّيل! لماذا؟ لأنّ المنفعة موجودة فيها؛ فالنّاس بهذه الطّريقة أيّ شيء ينفعهم يحبّونه ويعظّمونه؛ ومن ثَمَّ يعبدونه!

فأنتم لابدّ أن تفهموا: أنّ العبادة ليست مجرّد واحد يمشي مغمض العينين، وقالوا له: (تعال اعبد ربّنا) فعبده! وهؤلاء ماشون هكذا وأعينهم مغمضة، وقالوا لهم: (اعبدوا نهر النّيل) فعبدوه! لا! لا! هم في نفوسهم مشاعر أنّ هذا عظيم وتوارثوها، وأنّ هذا محسن فيتوارثوه؛ فإذًا عبد هؤلاء البقرة، والثّانين عبدوا بوذا، إلى أن نصل إلى ما نجده اليوم من عبادة القبور عند المسلمين! لماذا يعبدون القبور؟! يحبّونها، يحبّون الّذي في داخلها! لأجل أنّهم رأوه؟ لا! لأنّهم قالوا لهم: (إذَا كنتم تريدون أن تدعوا ربّنا؛ فإنّ هذا يوصلكم بسرعة)!

وليُعلم: أنّه حتّى الغلوّ في عليّ رضي الله عنه، وفي الحُسين، وفي فاطمة رضي الله عنها، رضي الله عنهم أجمعين أهل بيت النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– الّذين نحبّهم ونوقّرهم، ونتقرّب إلى الله بحبّهم؛ خدعوهم الرّوافض وأشعروهم أنّهم: (أنتم تقرّبوا إلى هؤلاء، وهؤلاء يصلون بكم إلى ربّ العالمين)! فجعلوهم مصدرًا لأيّ شيء؟! وصفوهم بالوصفين: بالعظمة من جهة، وبالإحسان والعطيّة من جهة أخرى؛ ولذلك فيما يخرّفون: أنّ صوت الرّعد هو صوت عليّ رضي الله عنه؛ لأجل أن يلقوا في نفوسهم عظمة عليّ رضي الله عنه، وهو من ذلك بريء!

لكن لأجل أن تتصوّروا: أنّ الخديعة ما تأتي، وما تكون محبوكة؛ إلّا لمّا يلقون عليهم وصف العظمة من جهة، ومن جهة يلقون عليهم وصف الإحسان؛ فلذلك {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ}.

نحن أطلنا في هذا الكلام لأنّه كلام مهمّ جدّا: وعلى أساسه يكون كلّ الكلام الباقي في التّسليم للشّرائع، لماذا ليس هناك تسليم حاصل؟! لماذا يأتي أحد يجادل في شرائع الله؟! لماذا يشبّهون علينا في الشّرائع؟! **السّبب في التّشبيه:** أنّهم يعاملون الله ليس على الكمال والإجلال والتّعظيم! وإنّما يعاملون الله كأنّهم يتكلّمون عن أحد مثلهم؛ فلا يصفون الله -عزّ وجلّ- بوصف الكمال! لذلك يأتون إلى شرائعهم وهم لا يطيعون الله! أو أنّهم كذلك يشبّهون علينا في الشّرائع!

ما هو موقف: {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ} في الآية؟ {أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ}.

إذًا {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ}: هذا حال المؤمنين المعتمد على معرفة الله؛ فإنّ معرفة الله هي الّتي أتت بالمحبّة، والتّعظيم؛ فهو معتمد على المعرفة.

سأذكّركم مرّة أخرى: السّؤال الأوّل الّذي ستُسألونه في قبوركم، **هو:** من ربّك؟ والحياة مجموعة أيّام ولياٍل لزيادة هذه المعرفة؛ أنت موجودة لأجل أن تعرفي: من ربّك؟ وكلّ شيء حولك يدلّك: من ربّك؟ لأجل أن تصلي في النّهاية أن تحيّي لقاء الله، فإنّ: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ)[1]، فَـ{ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ} لماذا؟ مرّت أيّامهم كلّها وهم يزدادون معرفة، وإذَا ازددت معرفة؛ ازددت حبًّا، وكلّ يوم يزيد عليك؛ ترى بعينيك آثار لطفه، آثار رحمته، آثار قرب، آثار عظمته، آثار جبره، آثار ستره، وكلّما رأيت ازددت محبّة؛ فكان {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ} ما حالهم؟ {أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ}، لماذا {أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ}؟ لأنّهم كلّ يوم يرون ما يدلّ على كماله، وهناك كلّها خديعة وكذب؛ فغير الله كماله خديعة وكذب، والله هو الحقّ، وكماله حقّ؛ فأنت كلّ يوم ترين آثار كماله فتقع المحبّة.

متى ستنكشف الأمور؟ {وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ} وبعد ذلك ما الّذي يحصل بينهم؟ **ألم نتّفق:** بأنّ هناك خديعة، وأنّ هناك أوهام، وكذب، وأنّ هناك إشاعات! أخبروني: ماذا يحصل حين يتقابلون هناك؟ {إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ} **يعني:** هناك أناس هم القادة، وهناك أناس تابعون لهم، وهذا الّذي يحصل.

هذا الكلام للصّغار والكبار: أيّ فكرة ترين نفسك أنّك تبنّيتها في النّظرة للحياة؛ لابدّ أنّ تسألي نفسك: من أين أتيت بها؟ دائما نقول: (لا! هذه من عندي، هذه من نتيجة خبرتي)! ليس صحيحًا! (النّاس كأسراب القطا مجبولون على تشبّه بعضهم ببعض)[2] فلابدّ أن تكون الفكرة قد أتتك من نقطة،

(١) أخرجه البخاريّ (٦٥٠٣).

(٢) ابن تيمية _مجموع الفتاوى.

قرأت كلامًا، قرأت تغريدة، قرأت مقالة، جلست مع إحدى صاحباتك، والتقطت الفكرة، وكبّرتها، إلى أن قادتك. غدًا عند ربّ العالمين عندما تكون هذه الفكرة مخالفة للصّواب؛ الّذي اتّبعتهم في الفكرة سيأتون يتبرّؤون منك!

{وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ} لا مودّة ولا محبّة ولا أيّ شيء! بالعكس؛ سينقلبون أعداء.

{وَقَالَ ٱلَّذِينَ} أيّا منهم هؤلاء الآن؟ الّذين {ٱتَّبَعُواْ}. الّذين هم في الذّيل {لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً} ماذا؟ لأجل أن يأخذوا حقّهم، يشفوا صدورهم: (أنّه في الدّنيا سمعنا كلامكم، وفي الدّنيا غرّرتم بنا، وفي الدّنيا خرّجتمونا) مثلما أنتم رأيتم الأحداث: يخرّجونها ويقولون لها: (اذهبي للحرّيّة، وستجدين، وستصيرين لاجئة، إلخ...)! وبعد ذلك ولا شيء! ففي الدّنيا قبل الآخرة هناك حرقة وقهر أنّها خُدعت! لكن في الدّنيا لا شيء مقابل ما ستلقاه في الآخرة! والله يتوب على من تاب مهما كان جرمه، لكن نحن نتكلّم عن القاعدة.

هناك مثال سهل: ضُرب في أثناء هذه الأحداث؛ جاء أحد مثّل مثالا، قال: (هناك راع وعنده أغنام، وكلّ يوم يُدخل هؤلاء الأغنام إلى الحظيرة، ويقفل عليها ويبقى في حراستها، فالذّئاب لم تقدر على أن تهجم على هذه الأغنام. ماذا فعلت؟ قالت: نقول للأغنام: (أنّك محبوسة، وأنّك منزوعة الحرّيّة، وأنّك مضطهدة، وأنّ هذا الباب المغلق عليك وهذا الحارس إنّما هما قيد عليك!) ونقول لها: (هناك طريقة: تظاهري، واصرخي، وطالبي بالحرّيّة، واهجمي على الرّاعي!) فهجمت على الرّاعي. لمّا هجمت، وخرجت، من استقبلها؟! الذّئاب!) **وهذا موجز الموقف الّذي نحن فيه**: أنّ الذّئاب تنتظر الغنيمة!

المهمّ: فإنّ هذه اللّعبة كلّها ممكن أن يكتشفها الإنسان في الدّنيا؛ فيكون في قلبه حرقة، ولو اكتشفها وكان في قلبه حرقة، وتاب؛ تاب الله على من تاب، انتهى. لكن لو ما اكتشفها في الدّنيا وجرّوه في الأهواء! يوم القيامة ماذا يكون الموقف؟ **مثل هذا**: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا} يعني يوم القيامة الّذين جرّوها، وأغروها، ووصّلوها إلى هذا، ماذا سيقولون؟ (كان عندك عقل! من قال لك أن تصدّقينا؟ من قال لك امشِ وراءنا؟) فلذلك أيّ فكرة في عقل الإنسان كان صغيرًا أو كبيرًا، لابدّ أن يقول لنفسه: (من أين أتيت بها؟ ما أصلها؟ كيف تتعامل مع الحياة بهذه الطّريقة؟) لأجل أن لا يأتي الّذي اتّبعته، فيتبرّأ منك يوم القيامة، وتكون حسرة عظيمة! وهذا الشّيء لا أحد يستطيع وصف ما تكون في النّفس من الحسرة في تلك الحالة!

ومثل هذا قد يحصل في الدّنيا: فقد يأتي موقف هكذا حتّى في الكبار في الوظائف تأتي **مثلا**: معلّمات تجتمعن مع بعضهنّ معترضات على الجدول؛ لأجل أن تذهبن عند المديرة، وتقلن لها: (غيّري لنا الجدول). ينزلن، ويتجمّعن، ويذهبن، حين تصلن عند الباب هناك اثنين أو ثلاثة لا تدخلن، تهربن! وحين تصرن بالدّاخل عند المديرة؛ واحدة تتكلّم، وثلاثة أو أربعة تؤيّدنها، وبعد ذلك المديرة تقول أيّ كلمة، فتهمّ الثّلاثة بالقول: (نعم، نعم، صح كلام المديرة!) ويخرجن! ومن الّتي تورَّطت؟ هذه الّتي وحدها، ماذا يكون موقفها؟! فالآن لم يعد يهمّها الجدول، ولا همّها أيّ شيء، همّها هؤلاء الجماعة اللاّتي تركنها وذهبن!

وهكذا هي الدّنيا بالضّبط، لا تأتي تتابع أحد وبعد ذلك في النّهاية ينسحب ويتبرّأ منك! وهذا فعل الشّيطان!

على كلّ حال؛ تمنّوا أن تكون لهم {كَرَّةً} ولكن لن تكون لهم كرّة، ولا توصف الحسرة الّتي كانوا فيها!

لكن مثل هذه المواقف الّتي يعيشها الإنسان يقول لنفسه (انظر كيف تكون الحسرة أنّني مشيت وراءهم وبعد ذلك تبرّؤوا منّي؛ ستكون يوم القيام أضعاف مضاعفة لهذه الحسرة، ولا صلاح، ولا إصلاح بعدها!)

فلابدّ أن تستفيدوا من هذه المشاعر الّتي تجدونها في الحسرة؛ لأجل أن تتصوّروا هذه المشاعر؛ فلا تتابعون أحدًا أبدًا، وهذه المشاعر لابدّ أن تكون عند الصّغار أكثر ممّا تكون عند الكبار؛ لأنّ الكبار قد اكتووا وعرفوا هذه الحقيقة. فالصّغار فقط يكفّيهم بأن لا يكتووا؛ وإنّما يعرفون فقط أنّه خطر، وإن كان لا أحد يتعلّم إلّا عندما يتأدّب هو بنفسه، لكن العاقل الذّكيّ الّذي يبدأ من حيث انتهى الآخرون، والغبيّ الّذي يقول: (لا! لابدّ أن أسقط في نفس الحفر، وأتألّم نفس الآلام؛ لأجل أن أصدّقكم!) فإن (السَّعِيدُ مَن وُعِظَ بغَيْرِه.)[1] نسأل الله أن يجعلنا من العاقلين جميعا يا ربّ.

{كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ}، {حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ} لأجل أن تصير {حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ}، {وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ}! ما هي العلاقة بينهم الآن؟ المحبّة. فصارت المحبّة والمشاعر ليست بلعبة؛ المشاعر الّتي تملكها؛ تملكها لتعبد الله.

دعونا نكتب ثلاثة تقريرات: كما كتبنا تقريرات على المسلّمات، دعونا نكتب تقريرات على المشاعر:

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

التّقرير الأوّل: المشاعر نعمة من الله، بها نتقرّب إلى الله. الله -عزّ وجلّ- وهبنا هذه المشاعر ليس لننفلت بها يمينًا وشمالًا؛ وإنّما هي مثل المركب الّذي يصل بك إلى الله، المشاعر نعمة من الله، بها نتقرّب إلى الله.

الشّأن الثّاني في المشاعر: أنها أخطر دوافع الإنسان، إن لم تكن هي الدّافع الوحيد. يعني: الدّوافع هذه كلمة واضحة، هي: الأشياء الّتي تدفعك لأن تقوم، لأن تذهب، لأن تعمل، لأن تأكل، إلخ... المشاعر هي أخطر دوافع الإنسان، هذا إذَا لم تكن هي الدّافع الوحيد أصلًا الّذي عند الإنسان؛ لأنّ الإنسان يأكل بدافع الجوع، صحيح، وبدافع حبّ الطّعام، وبدافع حبّ الحياة، فهناك مشاعر؛ يهرب من الأخطار بدافع الخوف، يعني: الخوف مشاعر تدفع الإنسان تجعله يهرب. فالآن النّتيجة: أنّ أخطر دوافع الإنسان هي: مشاعره، يعني الآن: المحبّة، الخوف، الرّجاء، كلّ هذا الشّعور الّذي به أنت إنسان؛ لابدّ أن تعرف أنّها نعمة من الله، تتقرّب بها إلى الله، ولابدّ أن تعرف أنّها هي أخطر دوافعك إن لم تكن الدّافع الوحيد عند الإنسان، يعني: يمكن من خلال تحليلات نجد أنّ الدّوافع الوحيدة هي مشاعرنا لأن نقوم بأيّ شيء في حياتنا.

يأتي الأمر الثّالث: وأنّ أصل العبادة مبني على المشاعر. سنرى: كيف أنّ أصل العبادة مبني على المشاعر؟ هل مرّ عليكم العبودية؟ ما هي ركائز العبوديّة؟ المحبّة، والخوف، والرّجاء. تمام، هذه اسمها ركائز العبوديّة. ما معنى ركائز العبوديّة؟ من كلمة: مركوز، أو من كلمة: ركيزة، الّتي هي: من الرّكاز، هل تعرفون الرّكاز؟ الرّكاز، هي: الأموال الّتي يجدونها مدفونة في الأرض. فركائز العبوديّة هي: المشاعر المدفونة في القلب وتُبنى عليه الأعمال كلّها. هذه هي: ركائز العبوديّة.

وأنّ أصل العبادة مبني على المشاعر. اجعلي بين قوسين كلمة: (ركائز العبوديّة). ما هي ركائز العبوديّة؟ الحبّ، والخوف، والرّجاء. الآن: هل هذه كلّها مشاعر أم ليست مشاعر؟! كلّها مشاعر! أصل العبادة مشاعرك! إذًا: أصل العبادة مبني على المشاعر.

نأتي بضدّها في رقم أربعة: وأصل الكفر والطّغيان المشاعر. كيف؟ تعالي إلى ركائز العبوديّة السّابقة وأخبروني كيف تصير؟ الآن الحبّ حقّا لله أصلًا! ولو صُرف لغير الله مثل الآية هنا: {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ}؟ يصير هكذا وقع الكفر والطّغيان! لو جئنا للكبر، اتركي أن يحبّ غير الله، أو أن يخاف من غير الله أكثر من خوفه من الله، وأن يرجو غير الله ويترك رجاء الله، هذه كلّها من الكفر. لكن لو سألتك عن جهة أخرى: تعالي إلى الشّيطان وكيف كان موقفه لمّا أمره الله -عزّ وجلّ- أن يسجد؟ ما الّذي منعه

من السّجود؟ الكبر. هذا الكبر هو عبارة عن مشاعر، عبارة عن شعور بأنّه أحسن منه، شعور بالتّعالي، شعور بأنّه لا يقدر أن يضغط على نفسه ويسجد لآدم، لماذا؟ لأنّه يرى نفسه أنّه أحسن منه! **إذًا معنى ذلك**: أنّ الكفر والطّغيان مبني على المشاعر.

إذًا ملخّص الكلام الآن: القربى من الله تكون بحفظ المشاعر لله، والبعد عن الله يكون بتشتيت المشاعر في الدّنيا وأهلها.

يعني: لو أنت الآن قبل أن تدخلي في الصّلاة، ومائة فكرة في الدّنيا: (تريدين كذا، وترجين كذا وتفعلين كذا، إلخ..) تدخل الصّلاة، ماذا ستصلّين؟ أين هي مشاعرك كلّها؟ نعم، في كلّ مكان.

أصل القربى إلى الله، لو جئت عند الخشوع، الخشوع يُعتبر شعور.

النّاس يرون مشاعرهم من حقّهم يتصرّفون فيها مثلما يريدون! وتجدين وراء هذا ما وراءه من البلاء! لا! فإنّه كما أنّ بدنك أمانة عندك ستحاسب عليه، فلا تقوم بإيذاء نفسك، ولا تقطّعها، ولا تفعل بها، كذلك مشاعرك أمانة عندك! **من المفروض**: أنّ مشاعرك هذه تقودك حيث رضا الله؛ ولن يكون صعبًا لو عرفت من هو الله؟ فإنّ الأمر لن يكون بالسّلاسل؛ وإنّما سيكون الأمر أحسن ما يكون حين تعلمين أنّ الله قريب، ومجيب، وأنّ مناجاته تكون على كلّ حال، تناجيه وأنت قائمة، وأنت على فراشك، وأنت ذاهبة، وأنت آتية، تناجيه بقلبك: (اعطني، اكفني، آوني، استرني، ارفعني، نجّحني، يسّر لي) كلّ شيء بيده –سبحانه وتعالى– والمنجاة يسيرة، يسيرة جدّا، ثمّ إنّك كلّ يوم يزداد عليك تزدادين فيه لجوءً له: {قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ}[1] كلّ يوم تظهر لك حاجة؛ تصمدين فيها إلى الله، ابتداء بالمناجاة.

المناجاة هذه الأمر اللّطيف جدّا الّذي بيننا وبين الله، **هي**: درجة من الدّعاء لكنّها تكون في كلّ الأحوال، ودائمًا تكون في قلبك حتّى وأنت مُقبلة على درسك **مثلًا**: تكونين مُقبلة على أن تعلّمي، أو تتعلّمي: تطلبين منه أن يقبلك، تطلبين منه أن يكون في ميزان حسناتك، تطلبين منه التّوفيق: (أنا أفعل هذا لك وليس لغيرك، انفعني به يوم ألقاك، وهكذا، وهكذا) فهذه المشاعر تُلطّف العبادة؛ بل تجعل العبادة أيسر ما يكون؛ ولذلك فإنّ الصّحابي يكون واقفًا على طرف المعركة، وبيده تمرات يريد أن

(١) سورة الإخلاص: ١_٢.

يأكلها، فتهيج مشاعر الشّوق إلى الجنّة، يشمّ رائحتها، تهيج مشاعر الشّوق إلى الجنّة، تثقل عليه هذه المدة الزّمنيّة الّتي سيأكل فيها التّمرة، فيرميها ويدخل إلى المعركة وقد هيّجه الشّعور!

فهذه العبادة ما أطيبها، وما أحسنها: الّتي فيها المحبّة، الّتي فيها الخوف، والّتي فيها الرّجاء؛ ولذا فإنّك لمّا تلعبين بمشاعرك وتذهبين به هنا، وهناك، وطوال الوقت تقولين على الدّنيا: (أنا أحبّ كذا! أنا لا أحبّ كذا!) تتشتّتين في الدّنيا؛ في النّهاية لن تجدي شيئًا محفوظًا لك، من أجل أن تتقرّبي به إلى الله، من أجل أن تنتفعي به، من أجل أن تنضجي؛ حتّى النّضج فإنّك لا تنضجي لأنّ بضاعتك الآن متفرّقة! ورأس مالك الآن مشاعرك إذَا بقيت تفرّقينها، ستجدين نفسك فقيرة! ستجدين نفسك لا تستطيعين أن تنفعلي مع الأحداث كما ينبغي!

ولذلك أحيانًا نرى أشياء مهولة، من كثرة ما فرّقت مشاعرها على صاحباتها، عندما يحصل حدث في بيتها عند أمّها، عند أبوها؛ لا مبالاة، لا تشعر بأيّ مشاعر، لا تتفاعل معهم! لماذا؟! فالمشاعر كمّيّة واحدة، وزّعتها على النّاس، تأتي في المواقف المهمّة فلا تجدين لديها مشاعر! لا تستطيع أن تنفعل! ما تستطيع أن تنضج! أن تتصرّف كما ينبغي أن يكون! والسّبب؟ لم يعد لديها شعور، فصلته! وزّعته! فالمشاعر رأس مال الإنسان؛ ولذلك هؤلاء المشركون الله -عزّ وجلّ- وصف شركهم بأنّهم ما بهم؟ بعدما قال لنا: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ}، وذكر الآيات، قال: ومع ذلك: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ} بعد كلّ دلائل العظمة، وكلّ دلائل الرّحمة، الّتي تسبّب المحبّة {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ} يا لها من مصيبة!

فلابدّ أن تعرفوا: مكان المشاعر! **ومشكلة:** أنّنا تجاهلنا المشاعر، وأنّها هي أصل العبادة وأُسَّهَا، فراحت يمينا وشمالا، وصار النّاس مضطربون فيها، وما جاءتنا المشاكل إلّا من وراء المشاعر! صح؟ لأنّه عندهم كمّيّة وحسبوا أنّه يمكنهم أن يصرفوا بلا حدود!

أوّلًا: هي: لها حدود!

ثانيًا: إذا ما صرفتها في المكان المناسب؛ انقلبت عليه.

ولا يوجد أحد يأتيه اكتئاب، وحسرة، وندامة، إلّا بعد أن يعطي أحدهم مشاعره كلّها، ويردّ الثّاني عليه ردّا لا يُناسب؛ فيأتيه اكتئاب! **لكن:**

- لم يعامل أحد ربّ العالمين، وعادت عليه المعاملة بالاكتئاب!

وما أحبّ أحد ربّ العالمين والله -عزّ وجلّ- ما رفعه؛ بل إنّه يجعل ذكره في السّماء! لأنّ العبد إذا صدق في حبّ الله أطاع الله، وإذَا أطاع الله أحبّه الله وجعل أهل السّماء يحبّونه، وليس هناك رفعة فوق هذه الرّفعة! وإذا أحبّه أهل السّماء نادى جبريل: أن أحبّ فلانًا. فيلقي محبّته عند أهل الأرض! فقط، ولا تحتاج أن تذهب تتحبّب إلى فلان وعلاّن لأجل أن يحبّك النّاس، لكن اجعل الله يحبّك، وتحلّ كلّ المشاكل! فلا تبحثي عن نفسك عند النّاس، ابحثي عن نفسك عند ربّ العالمين، والنّاس كفيلهم الله!

لابدّ أن تحدّدي: من هو المهمّ الّذي تصرفين إليه مشاعرك؟

على كلّ حال، أنا أطلت في هذا الجزء من الآيات؛ لأنّه غاية في الأهمّيّة، ولأنّ بقيّة الشّرائع معتمدة على هذه العقيدة -إن شاء الله- الأسبوع القادم نكمل ما يتيسّر لنا.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مدارسة سورة البقرة

"دارسة إجماليّة"

أ.أناهيد بنت عيد السميري

"الجزء الثّالث"

اللّقاء الرابع عشر: الخميس ٢٥ جمادى الأوّل ١٤٤٠ هـ

"تابع مدارسة المقصد الثّالث (١٦٣_٢٨٣)"

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكّلنا على الله، نبدأ من حيث انتهينا المرّة الماضية في مناقشة الدراسة الإجماليّة لسورة البقرة.

كنّا اتّفقنا بأنّ السّورة لها مقدّمة، وخاتمة، وأربعة مقاصد؛ المقصد الأوّل والمقصد الثّاني متّصلان، الّذي **هو**: الدّعوة إلى الإسلام، الفرق:

١) الدّعوة إلى الإسلام للنّاس كافّة.

٢) الدّعوة إلى الإسلام لبني إسرائيل.

خُصّص بنو إسرائيل؛ لأنّ دعوتهم إنّما تذكير بكتابهم الّذي نزل عليهم؛ في مقابل دعوة النّاس كافّة؛ تصوّريها: كأنّ الكلام عن الهندوس، الكلام عن البوذيّين، الكلام عن المشركين على وجه العموم؛ فهكذا انقسم النّاس إلى قسمين: ناس أهل كتاب، وناس ليسوا أهل كتاب؛ فدُعي الطّرفان إلى الإسلام.

دُعي الطّرف الأوّل بأيّ شيء؟ الّذين ليس لهم كتاب، قيل لهم: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ}[١].

أهل الكتاب ماذا قيل لهم؟ {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ}[٢].

بذلك نكون فهمنا التّرتيب:

هكذا وصلنا إلى الآية (١٦٣) في السّورة؛ صورة هذه الآيات واضحة تمامًا، لأنّ **سورة البقرة** موضوعها: الإسلام والاستسلام:

- فقُسّم النّاس من حيث حقيقتهم حول الإسلام والإيمان إلى ثلاث أقسام: مؤمنون، كافرون، منافقون.

---

(١) سورة البقرة: ٢١.

(٢) سورة البقرة: ٤٠.

وقُسّموا إلى قسمين من حيث حالهم مع الكتاب:

⇐ فظهر لنا أناس ليس لهم كتاب؛ قيل لهم: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ}.

⇐ وأناس عندهم كتاب؛ قيل: {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ}.

فإذًا إلى الآية (١٦٣) الأمر تامّ الوضوح.

الآن يأتي بعد ذلك، بعد بيان الإسلام والاستسلام، الشّرائع، لماذا؟ لأنّ الإسلام **هو**: الاستسلام لله بالتّوحيد، والانقياد له بالطّاعة. فكلّ القسم الأوّل كان الاستسلام لله بالتّوحيد؛ **من هنا**: الانقياد له بالطّاعة.

إذًا: قسم الشّرائع مبني على الاستسلام لله بالتّوحيد، يعني أوّلًا: التّوحيد، ثمّ تأتي الشّرائع؛ فالانقياد لله بالطّاعة ما يكون إلّا بعد الاستسلام لله بالتّوحيد.

ولذلك بدأ هذا المقطع، الّذي هو الكلام عن الشّرائع: {وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ}[1] **معناها**: أنّه لابدّ من تقرير التّوحيد، قبل أن نتكلّم عن الانقياد بالطّاعة.

الآن في هذا المقطع، قُرّر التّوحيد، هذا المقطع الّذي يُعتبر مقدّمة للشرائع، خاتمة للعقائد.

وكأنّه في هذا الخبر يُقال لك: إنّ التّوحيد لا يُنتقل عنه إلى غيره، بل يُنتقل به إلى غيره.

نحن الآن اتّفقنا: أنّ آخر الآيات الّتي أتتنا حكمت على أهل الكتاب الّذين كتموا، وعلى الكفّار، بأنّهم ملعونون، وأنّهم يلعنهم أهل الأرض وأهل السّماء. هكذا انتهى الكلام عن الطّرفين: الّذين ليس لديهم كتاب، والّذين عندهم كتاب، والّذين اشتركوا كلّهم في الكفر.

الآن الجزء الثّاني بدأنا فيه في الشّرائع، المتوقّع في الشّرائع: افعل ولا تفعل؛ لأنّه الانقياد لله بالطّاعة، لكن لابدّ أن تعرفوا أنّه في كلّ مرّة نتكلّم فيها عن الشّرائع، لابدّ أن نُذكّر بالعقائد؛ لأنّ العقيدة يُنتقل بها، تأخذينها معك إلى غيرها، ولا يُنتقل عنها إلى غيرها، **يعني**: لا يأتي وقت نقول فيه: (النّاس قد شبعوا من دراسة التّوحيد! النّاس قد شبعوا معرفة بالله! هذا الموضوع مكرّر ومطروح ويكفينا من نقاشه!) لأنّ هذا التّفكير له إفرازات ونتائج خطيرة جدًّا، ونحن الآن نذوق ثمنها.

---

(١) سورة البقرة: ١٦٣.

كيف تأتي هذه الأفكار للنّاس؟ وما هي الفكرة؟ الفكرة أنّه عندما يطرح النّاس المسائل، ويعلّمون النّاس ويجمعونهم، ينسون بأنّهم مبلّغون، ويتحوّلون للتّفكير بأن يجمعوا النّاس عليهم، وأن يصير لهم جمهور، ويتحوّل الموضوع من كونه تبليغ لدين الله، إلى شهرة وجمهرة وحزب! فحين يأتون إلى دراسة موضوع مثل التّوحيد، ويقومون بالإعلان عن الدرس فيقولوا: (هيّا، نريد أن نتعلّم التّوحيد) يجدونه موضوعًا مكرّرًا لن يأتي بالنّاس! فماذا يفعلون؟! يتركون التّوحيد ويذهبون إلى غيره! على علّة: (النّاس موحّدون، وقد سمعوا هذا الكلام وشبعوا منه!) وهذا ما هو إلّا من إفرازات الحزبيّة! الأحزاب هي من تفعل ذلك، لماذا؟ لأنّ الأحزاب تريد أن تنتصر لنفسها، تريد أن تجمع عليها النّاس، تريد أن تصبح لها شهرة ومكانة عند النّاس!

ولذلك أنت اليوم عندما تسمعين: هذه الجماعة اسمها كذا! وهذه الجماعة اسمها كذا! **لابدّ أن تعرفي:** أنّهم أخذوا جزءًا من الدّين واشتهروا به، وتركوا بقيّة الدّين، لماذا؟ لأنّ هذا يحقّق لهم مقاصد، **مثلًا:**

سنضرب مثالًا جماعة التّبليغ: هذه الجماعة مجتهدة جدّا جدّا في التّبليغ عن الله، باذلين كلّ قواهم في الدّعوة إلى الله، لكن عندهم مشكلة واحدة، وهذه المشكلة الواحدة قاسمة! **وهي:** أنّهم يتعرّضون للدّعوة بدون علم! اجتهادهم في الدّعوة قليل أنّك تجدين مثله، لكن بدون علم! بدون علم في ماذا سيكلّمون النّاس؟! ماذا سيقولون لهم؟!

لكن سنرجع للمشكلة الأساسيّة: أنّ الحزبيّة في الدّين مرفوضة، لا تنشئ حزبًا، وتجتمع عليه وتأخذ جزءًا من الدّين وتنادي به وتترك بقيّة الدّين! الله -عزّ وجلّ- أمرنا أن ندخل {فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً}[1] ادخلوا في الإسلام كلّه، وعندما تدخلون في الإسلام كلّه **انظروا:** ما هو الأساس، وما هو الّذي ينبني على هذا الأساس.

هذا الشّيء جاء لبلادنا بعد أن بُنيت أصلًا على الاهتمام بالتّوحيد، وكان في الأساس الكلام عن التّوحيد، من أن فتح الملك عبد العزيز، أو على الأصحّ سنقول: جمع الدّيار الموجودة في جزيرة العرب تحت راية واحدة، ما جمعها إلّا تحت راية التّوحيد، نُصْرَةً للتّوحيد ورفعة له، ماذا حصل بعد ذلك وقد صار النّاس على التّوحيد؟ جاءت الأفكار والأحزاب وفكّكت هذه المسائل، وصارت تنتصر لغير التّوحيد، وجاءت الأحزاب في فترة طويلة، يعني: على الأقلّ أنا أصفها من أكثر من ١٤١٨ و١٤١٩ بعد حرب الخليج، وقد كانت في وقت حرب الخريج الّتي كانت سنة ١٤١١هـ، النّاس استيقظوا من

(١) سورة البقرة: ٢٠٨.

النّوم على فاجعة: أنّ النّاس كانوا أحزابًا! بدلًا من أن يجتمعوا على وليّ الأمر، تحزّبوا! وظهر أنّ المشكلة في تدريس التّوحيد! تغيّرت المناهج، واعتدل الأمر، ودُرّس النّاس التّوحيد، يعني: في المرحلة المتوسّطة كانت المناهج تمام، وكان في الثّانويّة شيء من الخلط. المهمّ: تعدّلت المناهج، وانطلق النّاس.

بعد ذلك صارت نكسة لها أسبابها، المهمّ: في ١٨، و١٩، و٢٠، وبدأ النّاس من داخل التّعليم، ومن داخل المنظومة الّتي من المفترض أن تهتمّ بالتّوحيد، بدأت هي من تقلّل من قيمة التّوحيد! وصار الّذي يدرّس التّوحيد يُهمل ويقول: (النّاس موحّدون! النّاس موحّدون!) بل صارت حرب على من يقول: (اهتمّوا بالتّوحيد!) حرب من أيّ جهة؟ يقولون لك: (هل تحسبنا مشركين؟!) ماذا كانت النّتيجة؟ كانت النّتيجة في أقلّ من ٢٠ سنة، من ١٤٢٠ إلى ١٤٤٠ سمعنا كلمة الإلحاد!! الإلحاد الّتي لم نكن نسمع عنها ولا ندري عنها!! وأنا أذكر في مناهج الثّانويّة، كان هناك درس: "توحيد الرّبوبيّة والرّدّ على الملحدين" كان هذا لا يحتاج منّا أيّ وقت في الرّدّ ولا في النّقاش! بسرعة كنّا نمرّ لأنّ هذه الكلمة أصلًا ليست في الذّهن! إهمال في أقلّ من ٢٠ سنة خرّج ليس فقط ضدّ التّوحيد؛ خرّج ضدّ الدّين كلّه!! فأقلّ إهمال للعقيدة، وأقلّ إهمال للتّوحيد، هذه نتائجه!!! والّذي بنفسه كان قد أهمل؛ هو بنفسه سيرى النّتيجة.

ونسأل الله في هذا المجلس أن يغفر لكلّ من كان سببًا في ذلك؛ لأنّه من المؤكّد؛ أنّ غالب النّاس الّذين كانوا سببًا في منع الاهتمام بالتّوحيد في تلك الفترة، لم يكونوا يقصدون! كان في ذهنهم أنّ الموضوع بات مشهورًا! وما فهموا سنّة الله! وما فهموا وسواس الشّيطان! وما فهموا أنك إذَا لم تهتمّ بالتّوحيد وبالعقيدة وتجدّدها في نفوس النّاس؛ **تكون النّتيجة**: زوال التّوحيد، والشّيطان لا يجعل له وجود!

ولذَا النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– دعا للتّوحيد ١٣ عامًا في مكّة، ثمّ كلّ هذه العقيدة نفسها انتقل بها إلى المدينة وبنى عليها الشّرائع؛ **فالعقيدة يُنتقل بها إلى غيرها، ولا يُنتقل عنها إلى غيرها**.

وهذا لابدّ أن يكون مثل النّور أمامكم: أنّه لا يمكن أن تسترخي في مسألة الدّعوة إلى التّوحيد، لا نفسك، ولا النّاس الّذين أنت مسؤول عنهم، ولا مجتمعك.

وهذا الكلام يُقال للكبار وللصّغار: أنتم تحت أيديكم أمانات، وستكون تحت أيديكم أمانات: أبناءكم، ستكون تحت أيديكم أمانات المجتمع؛ لابدّ أن لا تغفل أعينكم عن التّوحيد أبدًا! لا يوجد أيّ برنامج تقدّمونه، أو نشاط، أو تدرّسون أيّ شيء؛ إلّا وتردّون المسألة إلى التّوحيد، إلى ربّ العالمين؛ لابدّ أن تُظهروا أسماءه وصفاته، عظمته وجلاله، لابدّ أن نُظهر في كلّ شيء آثار معرفتنا لله، مهما كنت

تشرحين، تريدين أن تتكلّمي عن الظّواهر الاجتماعيّة؟ لابدّ أن تتكلّمي عن ربّ العالمين! تريدين أن تتكلّمي عن الظّواهر الكونيّة؟ لابدّ أن تتكلّمي عن ربّ العالمين! الجغرافيّة؟ لابدّ أن تتكلّمي عن ربّ العالمين! فمهما كنت تريدين أن تقولي؛ ستقولين عن ربّ العالمين!

فالمقصد الآن وراء كلّ هذا النّقاش: عندما تتذكّرين المقطع الجديد في **سورة البقرة**، وكنّا قد انتهينا من العقائد وابتدأنا في الأحكام والشّرائع؛ ستبدئين بماذا الأحكام والشّرائع؟ بالتّوحيد مرّة أخرى. دليلًا على أنّ العقيدة يُنتقل بها إلى غيرها، ولا يُنتقل عنها إلى غيرها.

ابتدأت الآيات بقوله تعالى: في التّوحيد: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ} هذا التّوحيد الصّريح {لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ}، {إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ} بمعنى: تأكيد التّوحيد: أنّ الإله الواحد هو: المستحقّ للألوهيّة {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ} يعني: من أدلّة استحقاقه للألوهيّة ظهور سعة رحمته، ووصول رحمته إلى كلّ شيء.

لا تنسي أبدًا ختام هذه الآية: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} خُتمت بـ{ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ} لماذا {ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ}؟ **لأنّ من أدلّة استحقاقه –سبحانه وتعالى– للتّأليه والتّعظيم وحده ما ترى من آثار رحمته سبحانه وتعالى.**

ولذَا أوّل آية جاءت بعد التّقرير فيها ٨ من الأدلّة الدّالّة على كماله:

يقول الله عزّ وجلّ: {إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[(١)].

١. {إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ}.

٢. {وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ}.

٣. {وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ}.

٤. {وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ}.

٥. {فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}.

(١) سورة البقرة: ١٦٤.

٦. {وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ}.

٧. {وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ}.

٨. {وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ}.

{لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ}. لا تنسي ٨ أدلّة على عظمته –سبحانه وتعالى– في القدرة، وعلى عظمة رحمته، **فهي دليل على أمرين:**

١) على عظيم القدرة.

٢) وعلى عظيم الرّحمة.

إذًا معنى ذلك: {وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ} ما هي الأدلّة على أنّه الرّحمن الرّحيم؟ وما هي الأدلّة على أنّه إلهنا الّذي يستحقّ؟ **تقولين:** {إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ} إلى أن تصلي إلى: {لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ} وأدلّة على استحقاقه للألوهيّة، على أنّه {ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ}.

ومع ظهور هذه الرّحمة الموجبة للمحبّة: عندما يرحمك ويعطيك، ويغذّيك، ويأويك، ويحميك، ويحفظك من وساوس الشّيطان الّتي تقلّل إحساسك بالنّعمة الّتي تعيشينها؛ هذا كلّه يسبّب المحبّة.

كأنّك تقولين: ومع ذلك {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ} لماذا {ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ}؟ لِمَا يرون من آثار رحمته سبحانه وتعالى؛ لأنّ الرّحمة هي الّتي تسبّب لك المحبّة؛ حين تشعرين بالرّحمة فإنّ هذا يتسبّب في المحبّة.

وبعد ذلك رأينا ما سيكون من البراءة بين الطّرفين؛ لأنّ هؤلاء الّذين أحبّوهم من دون الله، لابدّ أن يكونوا قد قاموا بأفعال كثيرة لأجل أن يجمعوا حولهم النّاس، أو لأجل أن يتّبعوهم، ولابدّ أن يكونوا قد كتبوا لهم كتابات، وخطبوا فيهم خطابات، وأغروهم إغراءات؛ **فيصير هناك:** رأس، **وهناك:** ذيل وذنب؛ هذه الرّأس **هو:** أيّ أحد مشهور مثلًا، كاتبًا كان أو أيًّا كان، مشهور ليس على المستوى السّطحي، هذا التّافه! وإنّما كذلك المشاهير أصحاب الأفكار الّذين يكونون أكبر، مثلًا: (لينين، ستالين، ماركس) **مثلا:** الأفكار الكبيرة؛ هؤلاء يكونون رؤوسًا، وبعد ذلك يأتي من العرب من هم خالون من إيمانهم! ويذهبون يقتنعون بأفكار ماركس، وتدخل الشّيوعيّة إلى ديار المسلمين؛ سيكون هناك: رأس، وأتباع.

يوم القيامة ما الّذي يحصل؟ يحصل هذا التّبرّؤ الّذي ترينه؛ وهذا متكرّر في كتاب الله؛ أنّ أهل النّار بينهم خصومة؛ لأنّهم في الدّنيا كانوا مستسلمين، أيّ واحد يأتيهم بفكرة، يقولون: (سمعنا وأطعنا)!

أمّا أهل الإيمان يقولون:{سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}[١] لمن؟ لربّ العالمين، وليس {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} لكلّ ناعق! كلّ واحد يخرج بفكرة تذهبين وراءه! سواء كان من التّافهين الّذين أصلا لا يملكون في رؤوسهم فكرة، أو كان من المشهورين الّذين وضعوا كلامهم على فلسفة؛ وعلى ذلك تأتي تسألينهم: (خلق السّماوات والأرض، كم فيها من دليل؟) يقولون لك: (إن الأرض والسّماء خُلقتا بالانفجار)! لماذا خُلقتا بالانفجار؟! من أين أتيت بالانفجار؟! أين في كتاب الله أصلًا هذه الكلمة؟! يقول لك: (الانفجار الكوني)! وكلّما انتهوا من فلسفة، وبردت نارها، وذهب أصحابها، يأتي الّذي بعدهم يكذّبونهم، يقولون: (لا! فإنّ نظريّة دارون فيها كذا! وكذا! والانفجار الكوني يفسّر الكون)! انتهينا منهم يأتي غيرهم! لكن لابدّ أن تعرفوا بأنّهم ليسوا باحثون عن الحقّ! وإنّما هم يبحثون عن كلمة يقولونها تحلّ محلّ الكلام عن الله؛ لأجل أنّك لمّا تسألينهم تقولين لهم: (إنّ في خلق السّماوات والأرض آية) يقولون لك: (من قال لك إنّ السّماوات والأرض خُلقتا؟! وإنّما الكون انفجر، وما أنت يا آدمي إلّا مجرّد غبار كوني)!

الله –عزّ وجلّ– يقول في القرآن: {مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا}[٢] أنت تتركين: خَلَقَ الله السّماوات والأرض! وتذهبين تقولين: (انفجرت!) تتركين الحقّ المبين، وتأخذين شاهدًا من شواهد الإلحاد!

سأطيل هنا قليلًا لأجل أن تتصوّري: الإلحاد ماذا يفعل؟ يُخرّج جوابًا على كلّ سؤالٍ وجودي غير جواب الله! مثل: (كيف خُلقنا؟) يقول لك: (نحن تطوّرنا من خليّة حقيرة، كنّا خليّة حقيرة، وبعد ذلك صرنا قرودًا، وبعد ذلك صرنا آدميّين)!

(حسنًا، لماذا باقي القرود لم تتطوّر؟!) هذا السّؤال المنطقي، فيقول لك: (لا! الانتخاب)! يعني الأقوى هو الّذي يستطيع أن يتطوّر! (ولأجل ذلك الدّيناصورات أين ذهبت؟) (انتهت) (لماذا؟) (لأنّها لم تكن قويّة بالقدر الكافي لكي تستمر)!

وخذ من هذه الفلسفة إلى أن يتصدّع رأسك! ولا تفهم كيف تتكلّم معهم! المهمّ أنّهم في كلّ مرّة يكون عندهم جواب على سؤال يدلّك على الله، يعني أيّ آية في القرآن تدلّ على الله؛ فهم مباشرة يأتون لها

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٢) سورة الكهف: ٥١.

بجواب آخر غير أنّها تدلّ على الله؛ بحيث إذا جلست في النّقاش معه؛ وقلت: (لو كنتَ عاقلًا، كنتَ رأيت أنّ هذه آية!)، يقول لك: (لا! من قال لك أنّ هذه آية تدلّك على الله؟)! فيأتي "المغفّلين من المسلمين" ويقومون باستعمال نفس الكلمات الّتي استعملوها هم بديلًا عن الله، ويقومون بتلصيقها في الكلام عن الله! فحين تقرئين القرآن من أوّله إلى آخره فإنّك ما تجدين إلّا {خَلَقَ ٱللَّهُ} ماذا؟ {ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ}.

أضيفي كلمة: (**انفجار**)، على كلمة: (**خلق**)! أو كلمة: (**انفجار**)، على اسم: (**الله**)! ماذا ستقولين؟! هل ستقولين: (الله فجّر الكون؟!) **مثلًا!** وإذَا أنت قلت: (الله فجّر الكون) فأنت بهذا تُثبتين فِعْلًا لله! أوّل شيء سنقوله لك: (هاتي دليلك على أنّه فعل الله؟!) ألم يقل الله -عزّ وجلّ- في **سورة الحديد**: {هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ}[1] هذا هو الخبر! فالصّحيح ألّا تتجاوز الخبر القرآني.

لكنّهم يبحثون ويبحثون ليفتّشوا عن دليل، ويقولون لك: (هذه الآية تدلّ على أنّه انفجار: {كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا}[2]! **أوّل شيء**: ارجعي للمفسّرين لأجل أن تعرفي، وخاصّة "**ابن كثير**"، وانظري: ماذا يقول في معنى الآية؟ فلا يمكن أن يستخدم أحد كلام الله في تأييد نظريّة بعد قليل ستزول!

فالمقصد الآن: أنّنا لا نحتاج أبدًا إلى الفلسفة، بل محتاجين إلى الوقوف عند النّصّ، ونسبة أفعال الله لله صراحة؛ لأنّك تعبدين الله حين تقولين: (خَلَقَ السّماوات والأرض)، لكن ماذا ستقولين عندما تقولي: (انفجر الكون)؟! ماذا ستقولين؟! غير ما تحمله كلمة انفجار من الكذب الصّريح في كون أنّه لا يمكن أن يكون الانفجار مُخْرِجًا لهذا الكون العظيم. الانفجار أصلًا كلمة لا تصلح للتّعبير عن شيء متناسق، ومرتّب، لكن لا نريد أن ندخل في التّفاصيل.

المهمّ اجعل هناك قاعدة بدون أن تدخل في تفاصيلها: أيّ فعل من أفعال الله، لا تعبّر عنه إلّا مثلما ورد في النّصّ. فقط! فقط! وهكذا سَتُغلقين على نفسك كلّ أبواب الشّكّ؛ لأنّ ربّ العالمين سيحاسبنا: ماذا نعتقد في {ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ}؟ أنت قرأت الآية: {إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ... لَأٓيَٰتٖ} **إذًا**: ما هو اسم هذا الفعل؟ {خَلۡقِ}. مَن خلقه؟ الله عزّ وجلّ.

فالمشكلة الآن آتية من جهتين:

---

(١) سورة الحديد: ٣_٤.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

١. آتية من كونهم استعملوا هذه الكلمة لأجل أن ينفوا وجود الله؛ فأتى المسلمون أخذوها ونسبوها فعلًا لله! وهي لا تصلح أن تكون فعلًا لله!

٢. وكونك تقول: (نعم، الأرض أتت بانفجار كوني!) كأنّك تقولين: (نعم، أنا أوافق على النّظريّة الّتي تنفي أنّ هذا فعل الله) تصوّري: الآن أنا أربّي جيلًا، وحين أكلّمه عن {ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ} أقول له: (انفجرت) وأنا في عقيدتي أنّ الله هو الّذي فجّر الكون! ابني ماذا سيحفظ عنّي؟! سيحفظ عنّي: (انفجر!) ولن يحفظ عنّي: (أنّه خلق!).

وهذا الّذي يفكّر أنّه: (انفجر!) سينتقل عنه لغيره: (أنّ الكون انفجر!) سيبدؤون ينسون الكلام عن الله! إلى أن يأتي زمان يقول أهله: (كنّا نسمع آباءنا يقولون: الله! الله!) كيف؟! بنظريّة هم يفهمونها جيّدا اسمها: الإخلال والإحلال، هذه النّظريّة واضحة جدّا! المقصود بها أن يخلخل ما في قلبك من أسماء واعتقادات، ويجعل بدلًا عنها أسماء أخرى!

ولا تنسوا ما درسناه في قصّة آدم: {وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا}[١] **قلنا:** إنّ أهمّ شيء في الكون أسماء الأشياء، وأهمّ لعبة يستعملها النّاس علينا: "المسمّيات" فلو سمّى الأشياء بغير اسمها، **معناها:** ستحلّ معانٍ جديدة.

نحن فقط تطرّقنا لهذا بالمناسبة؛ وإلّا فإننا متّفقون: بأنّنا ننظر إلى كتاب الله، فنعرف أفعال الله من كتاب الله، ولا نتعدّاها. وهذه مسؤوليّتنا لأنفسنا، ومسؤوليّتنا لمن حولنا، وهذا هو الّذي نفكّر فيه: {إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ}[٢] هذا هو الّذي نفكّر فيه: إذا {حُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ} يكون في قلوبنا الاعتقاد الصّحيح.

انتهينا من مراجعة ما مضى.

(١) سورة البقرة: ٣١.

(٢) سورة العاديات: ٩_١٠.

نبدأ الآن في الآيات الجديدة، من الآية (١٦٨):

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ}[1].

بسم الله، سنبدأ أوّلا بالرّابط بين هذه الآيات، والآيات السّابقة، يعني الآية (١٦٨) والآية (١٦٩)، هاتان آيتان متّصلتان ببعضهما.

لمّا بيّن الله التّوحيد ودلائله، أتبعه بذكر الشّرك، ومن يتّخذ من دون الله أندادًا؛ فقبّح ذلك وبيّن سوء العاقبة؛ ومن تقبيح الجرم ذكر إنعامه –سبحانه وتعالى– على خلقه وإحسانه إليهم، وكرمه حيث أنّه سبحانه لم يقطع إحسانه ونعمه عمّن عصاه أو كفر به.

هيّا انظري: إلى الآية (١٦٨)، والآية (١٦٩)، اللّتان في هذا الموطن: ماذا قيل؟ {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا}. من هم {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ}؟ الكلّ، سواء كان هذا آمن واتّقى، أو كفر، كان برّا أو فاجرًا؛ الجميع الله –عزّ وجلّ– يُنعِم عليهم.

وهذا يفسّر لك: كون أنّهم يكونون أهل كفر، وعندهم نعماء من الدّنيا؛ لأنّه –سبحانه وتعالى– من كرمه لا يقطع فضله وعطاءه حتّى عن أهل الكفر، علّ هذا ينفعهم، علّ هذا يردّهم، علّ هذا يجعلهم يفكّرون، أو يكون هذا التّمتّع الّذي لهم هو نصيبهم الّذي يكون لهم من بعض أعمالهم الصّالحة الّتي يعملونها في الدّنيا؛ لأنّ أهل الكفر عندهم نوع من الأعمال الصّالحة لا يقصدون بها الآخرة، أو يكونون

(١) سورة البقرة: ١٦٨_١٧٦.

مشركين فلا تنفعهم؛ فشيئا ممّا ينفعهم أن يُساق لهم بعض النّعم، **لكن في الأصل**: الله -عزّ وجلّ- لا يقطع نعمه، لا عن برّ، ولا عن فاجر، لا عن مؤمن، ولا عن كافر؛ ولا تظنّ أنّ العطاء في الدّنيا مبنيّ على الإحسان وعدم الإحسان؛ إنّما الأصل في العطاء في الدّنيا أنّه اختبار! وهناك من ينجح في الاختبار، وهناك من يفشل؛ لكن الجميع الله -عزّ وجلّ- يُعطيهم، الجميع الله -عزّ وجلّ- يرزقهم.

فإذًا: {كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا} **من المفترض**: أنّ هذا الحلال الطّيّب يجعل الإنسان عابدًا للرّحمن، لكن هناك من يدخل عليه؛ ولذلك نُهينا عن اتّباع خطوات الشّيطان {وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ} **معنى ذلك: أنّ الأصل في فطرة الإنسان ليس الكُفر؛ وإنّما الأصل في فطرته الإيمان. وهذه الجملة مهمّة جدًّا: الأصل في الإنسان الإيمان**. متى يأتي الكفر؟ باتّباع {خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ}، يعني هو يفتح عينيه، واليوم الّذي يعرف الإنسان فيه نفسه، ويخرج من مرحلة الطّفولة إلى مرحلة العقل والإدراك التّامّ؛ يعرف ربّه مباشرة؛ لأنّه في الحقيقة في الأرض لا يعامل إلّا الله، لكن أين يحصل الخطأ؟ في متابعة الشّيطان.

إذًا: هذه الأرض الّتي أنت فيها هيّأها الله لك حلالًا طيّبا؛ المتوقّع أنّ هذا الحلال الطّيّب الّذي ستأخذ منه، سينفعك ويدلّك على ربّ العالمين. **أين المشكلة؟** اتّباع {خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} وهذه أمور كلّها متّصلة بما جعل الله في الأرض من حلالٍ طيّب.

الآن في هذه الآية الشّيطان له فعل مع ما أحلّ الله. ما هو فعله؟ يأتي إلى بعض الأمور ويحرّمها عليهم، ويأتي إلى بعض الأمور وتكون خبيثة ويحلّلها لهم.

نضرب مثالًا: الآن فكرة النّباتيّين. ما هي فكرة النّباتيّين؟ لا يأكلون اللّحوم من باب الرّفق بالحيوان، يعني حرّموا على أنفسهم ما أحلّ الله على أنّهم مُشْفِقُونَ على الحيوان؛ في مقابل أنّهم لا يُشْفِقُونَ على النّبات؛ وإنّما يأكلونه! طبعًا: النّظريّة عندهم أنّ هذا فيه روح، وهذا ليس فيه روح. على كلّ حال، لن ندخل في التّفاصيل، لكن عندما تلتهم الخضر والفواكه؛ سيكون هذا نوع من الأخذ من الأرض!

من أين جاءت فكرة عدم أكل الحيوان رفقًا به، مع أنّه أصلًا من عطاء الله في الأرض؟ يصير هذا من {خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ} أن يحرّم عليهم ما أحلّ الله بفكرة، بفلسفة، فلا تحسبون أنّهم يحرّمون ما أحلّ الله بدون فلسفة! لابدّ أن يُفلسفوا الأمور، لابدّ أن يأتوا بسبب؛ ثمّ إنّ الإنسان يقع في قلبه: (أنّه ممكن أن

يكون صحيحًا) فهذه الفلسفة هي الّتي تأتي بالمشاكل! وعلى ذلك الأضاحي، الهدايا في الحجّ، ماذا ستكون بالنّسبة للنّباتيّين؟ ماذا تُعتبر؟ ستعتبر نوعًا من أنواع الجرائم، مجرمون، وانتهاك لحرمات الحيوان!

فأصل الفكرة من هنا: فالنّباتيّين منذ زمن بدؤوا في الطّعن على المسلمين في كونهم يقدّمون الأضاحي، وكبرت المسألة إلى أن انتشرت الثّقافة **تحت عنوان:** الرّفق بالحيوان. وهذا إنّما هو من{خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ}!

هل هناك علاقة في ذهنك واضحة الآن: بين: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا} **وبين:** {وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ}؟ يعني دائما الشّيطان يأتي إلى ما أحلّ الله في الأرض ويحرّمه على النّاس! هذه خطوة، يقابلها خطوة ثانية: تكون هناك أشياء محرّمة، يحلّلها الشّيطان!

إذًا: ما أحلّ الله في الأرض مكان لخطوات الشّيطان.

وأنت لو تتبّعت الفلسفة على مرّ العصور سواء من جهة اليونانيّين، أو من جهة الشّرقيّين الهنود، وغيرهم؛ تفهمين هذه الآية بوضوح: أنّ أوّل خطوات الشّيطان مع النّاس تبدأ مع ما أحلّ الله في الأرض، يحرّم عليهم ما أحلّ الله، ويحلّ لهم ما حرّم الله.

وأنت عندما تحفظين هذه الآية تذكّري: بالنّسبة لنا في وضعنا المعاصر: مسألة النّباتيّين.

{إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم} بماذا؟ {بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ} يعني أنّ المسألة ليست مجرّد أنّ النّباتيّين لا يأكلون اللّحوم! لا! وإنّما هم وصلوا أن يقولوا على الله بلا علم من جهة كون: (أنّ هذه جريمة! وحرام عليكم!) فقالوا على الله ما لا يعلمون! واتّهموا شريعة الله، هذه هي المشكلة!

لكنّ أحدًا مثلًا يقول: (أنا لا أشتهي اللّحم! أنا أصلًا لا أشتهيه!) نحن ليس لنا علاقة بهذه الحالة، أناس لا يحبّون اللّحم؛ هذا يعتمد على رغبتهم، لكن هناك فرق بين أنّك لا تحبّه، وبين أن تقول: (حرام تأكله)! يعني حرام في شرع النّاس وليس في شرع الله، فتحرّم ما أحلّ الله، وطبعًا في جهة ثانية أكيد يحلّلون ما حرّم الله؛ ومن ثمّ فإنّ الشّيطان يكون هو من وضع للإنسان خطاه في الحياة، كيف يمشي في الحياة؟ الشّيطان هو الّذي يفعل له.

إذًا المسألة فيها {خُطُوَٰتِ} وأيّ فلسفة فيها {خُطُوَٰتِ}! أيّ فلسفة لا تأتي هكذا مفاجأة؛ وإنّما الشّيطان يأتي خطوة خطوة يأخذ النّاس.

إذًا لابدّ أن تكون عقيدتك مبنيّة على أدلّة، لا تأتي تعتقد في أيّ شيء إلّا بما قال الله، وإذَا ما وجدت وقصر علمك عن معرفة شيء معيّن؛ ابقَ سائلًا الله أن يعلّمك ماذا يجب أن تعتقد، وباحثًا عن ذلك.

سأضرب لكم مثالًا: عذّبونا وهم يقولون: (النّاس صعدوا إلى القمر! النّاس صعدوا إلى القمر!) لنا ٣٠ أو ٤٠ سنة ونحن نسمع هذا الكلام! هم هل صعدوا إلى القمر أم لم يصعدوا؟! لا ندري! لأنّه بعد سنوات حيث أنّ كلّ واحد يريد أن يطعن في الثّاني، خرجوا قالوا لك: (لا! إنّهم لم يصعدوا إلى القمر! وإنّما كان هذا مجرّد تصويرًا قاموا به في مكان فقط من أجل هذه الحرب الباردة أو قبلها! وكذا! وكذا!)! المهمّ: هل هم صعدوا أم لم يصعدوا؟! نحن لا ندري لأنّه ليس هناك أيّ دليل حسّي سواء كان يثبت أو ينفي! وإن كان على التّصوير فأنت تعرفين التّصوير والخدع الّتي يمكن أن تكون فيه.

الآن ماذا أفعل؟! هل أعتقد أنّهم صعدوا إلى القمر أم لا أعتقد؟!

- **أوّلًا**: هذا موضوع لن تحاسبي عنه يوم القيامة.
- **ثانيًا**: جاءتك أدلّة تدلّ على أنّه: لا يمكن أن ينفذوا {إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ}[1].

والشّياطين كيف كانت تنفذ؟ هل كانت يُسمح لها؟ وهل هؤلاء سُمح لهم من عند ربّ العالمين ابتلاء وامتحانًا؟ الله أعلم! يصير الجواب عندنا: الله أعلم صعدوا أم لم يصعدوا. **لكن أهمّ شيء**: أنت لا تعطي نفسك في الأمور الّتي ما عليها دليل حالة الجزم، خصوصًا في المسألة الّتي تتّصل بالأمر البعيد عنك الّذي لا تدري عنه؛ لأنّهم يشعرونك بأنّ هذه حقائق!

المهمّ لابدّ أن تفهمي: أنّه هناك خطوات للشّيطان في كلّ مفهوم! فقلبك ليس بلعبة لأجل أن تدخلي أيّ مفهوم في قلبك، لا! {إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ}؛ فإنّه {حُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ}؛ فأنت لا تجعلي شيئا يقينيًّا حتميًّا إلّا الّذي جاء الدّليل عليه، والباقي إذَا كانت هناك أدلّة حسّيّة وعقليّة معروفة؛ سنقبله طبعا، أمّا إذَا كنّا فقط نسمع كلامًا ونرى صورًا! ويأتي العدوّ يقوم بنقض كلامه، والثّالث يقول كلامًا عكسه! فنضيع بينهم، وفي النّهاية نقول: (الله أعلم!) فنحن بالنّسبة لنا الأمر فيه يقين أنّ الله –عزّ

(١) سورة الرحمن: ٣٣.

وجلّ- خلق السّماوات والأرض، وأنّ هذا الوصول إلى الفضاء لا ينفذ إليه الإنسان {إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ}. الله أعلم! إن كانوا نفذوا بسلطان؟!

أنا ضربت هذا المثال لأجل أن تتصوّري: أنّ هناك أشياء لابدّ أن تكون عندك مقطوعة حتمًا، وهناك أشياء فيها: (الله أعلم!) فلا تعطِ لنفسك أبعد من هذا، إلى أن يتبيّن الحقّ. ولا أدري إن كان سيتبيّن لنا الحقّ عندما يذهبون بنا نحن كذلك إلى الفضاء؟! لا ندري! لأنّهم في بقيّة الأكذوبة وعدوا النّاس بأنّهم سينظّمون لهم رحلات إلى الفضاء!

على كلّ حال، {إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} قد اتّفقنا أنّه سيصل النّاس في ذلك أن يقولوا على الله بما لا يعلمون.

نأتي إلى الآية (١٧٠): {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} هنا لبّ المسألة الّتي تناقشنا فيها: الله -عزّ وجلّ- إذَا أمرهم أن يتّبعوا، وأُمِرُوا من قبل الأنبياء أن يتّبعوا ما أنزل الله من الدّلائل الباهرة، قالوا: (لا نتّبع، بل نتّبع) {مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ}!

وإنّ {مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ} تكون على حسب كل زمن، ممكن الّذي ألفوا عليه آباءهم أنّ الإنسان قادر على أن يفعل كلّ شيء، أنّ الإنسان متطوّر عن خليّة حقيرة، أنّ الإنسان جاء من غبار الكون؛ **فأنتم لا تتصوّروا:** أنّ {مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ} يعني الأصنام. لا! ليس هذا المقصود!

كلّ جيل يكون آباؤه لديهم أفكارًا، فنقول له: (هذا الدّليل والبرهان!) وهو يقول: (لا! أنا وجدت آبائي يفكّرون بهذه الطّريقة إذًا: سأفعل أو أفكّر مثلما قال آبائي)

لمّا خرج نيوتن، يقول: (الجاذبيّة هي سبب بقاء الأشياء مستقرّة على الأرض) هو بذلك يكون قد نقض نظريّة سابقة له بِـ ٢٠٠ سنة! ٢٠٠ سنة والنّاس يفكّرون بالنّظريّة السّابقة! أنا لن أدخل بكم في التّفاصيل.

المهمّ: النّظريّة السّابقة لنظريّة نيوتن بها فسّر النّاس ثبات الأشياء على الأرض؟ جاء نيوتن بعد ٢٠٠ سنة ونقضها. كلّ الّذين مضوا قبل الـ٢٠٠ سنة كانوا يفسّرون ثبات النّاس في الأرض على أساس النّظريّة السّابقة الّتي كان عليها آباءهم، جاء نيوتن بنظريّة جديدة، لم يقبلها الجيل الّذي هو فيه، وبعد ذلك تسرّبت بطرق، جاء الجيل الجديد ففكّر مثل نيوتن!

انتهينا الآن من نيوتن، وبعده جاءت الفيزياء الكمّيّة، وجاءت بعد ذلك نظريّة جديدة نقضت نظريّة نيوتن؛ وإنّ نظريّة نيوتن مُنتقضة، ووضعوا نظريّة مكانها.

نحن غالبنا مازال تفكيره على نظريّة نيوتن! لكن نيوتن في العالم العلمي قد تمّت إزالة نظريّته أو أدخلوا عليها كثيرًا من التّعديلات الّتي تساوي إلغاءها، ووضعوا نظريّة جديدة، لكن نحن على {مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ}! وهذا كلّه كلام، كلّه نظريّات، هؤلاء ألفوا هؤلاء، وهؤلاء ألفوا هؤلاء، بهذه الطّريقة.

فلا أريدك أن تقرئي هذه الآية وتظنّين: أنّ {مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ} تذهبين بفكرك أنّها على قريش، وأنّ قريش كانت قد ألفت آباءها بالأصنام! ونحن بريؤون من ذلك! اللقاء الماضي لمّا قرأنا عن غاندي وأمّه البقرة! ماذا فعل؟ فكّر كما ألفى آباءه، بالضّبط!

إذًا: {خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ} ماذا تفعل؟ تمشي بالنّاس خطوة، خطوة بعيدًا عن الحقّ؛ ثمّ بعد ذلك تصير هذه الخطوة البعيدة عن الحقّ هي الّتي عليها التّفكير! يأتي الجيل الّذي بعده يجد آباءه على هذه، وكذلك الشّيطان بقليل من الخطوات يأخذه أبعد من ذلك يطرح عليه وفلسفة أكثر، فيبتعد أكثر وأكثر! فهذه هي {خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ} المبنيّة على أمرين:

الأمر الأوّل: في الآية السّابقة أنّ الشّيطان يأتي إلى ما أنعم الله به علينا ويخطو في هذه النّعم بعيدًا عن الحقّ! {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ}.

الأمر الثّاني: يحوّل هذه الخطوات إلى عادات في التّفكير؛ بحيث أنّهم ما يقدرون على التّحرّر منها! **فإذًا:** كلّ جيل يقلّد الجيل الّذي قبله، وما يقف عند تقليده؛ وإنّما يفلسف الخطوة الشّيطانيّة! بالضّبط مثلما فهمنا في غاندي! **يعني:** غاندي ما وقف عند أنّهم كانوا يعبدون البقر؛ وإنّما فلسف هذه العبادة وقال: (وأمّي البقرة أفضل من أمّي الحقيقيّة)!

نعود إلى قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ} ما هو الجواب عليهم؟ {أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ} يعني وُصف الآن {ءَابَآؤُهُمۡ} بصفتين:

الصّفة الأولى: {لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا}.

الصّفة الثّانية: {وَلَا يَهۡتَدُونَ}.

{لَا يَعۡقِلُونَ}، {وَلَا يَهۡتَدُونَ} يعني كلّ فكرة مخالفة للنّصّ ولو كانت عادة في التّفكير؛ فإنّ الّذي أوجدها له صفتان:

- **لا يعقل!**
- **ولا يهتدي إلى الصّراط المستقيم!**

إنّما هو مجرّد (**تابع**) للشّيطان!

لا تنسوا: (**تابع**) لأنّنا كنّا من البداية قد تناقشنا فيها. {خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ} هي الّتي تخلق ال(**تابع**) {إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ}. إذًا الآن: رأس الّذي يكون مُتَّبَعًا الشّيطان! وله خطوات يصل بها بالنّاس إلى الاتّباع! ثمّ بعد ذلك يكون هناك أناس رؤوس للضّلال، **هم**: شياطين الإنس الّذين تعاونوا مع الشّيطان! ففي النّهاية يحصل الاتّباع.

تصوّري كيف يحصل الاتّباع؟ خطوات للشّيطان، يتعاون فيها الشّيطان مع شياطين الإنس، وتكون النّتيجة أنّه تكون هناك رأس، وهناك أتباع، وبعد ذلك تتحوّل إلى عادة في التّفكير، وبعد ذلك تتحوّل إلى فلسفة، وهكذا!

دعونا نرى حالهم الحقيقيّة، كما في المثل الّذي ورد في الآية:

على كلّ حال، الشّيطان ما حاله مع النّاس؟ {يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ} يعني هذه أوامره! {ٱلۡفَحۡشَآءِ} ستكون واضحة، كيف لا يشعر الإنسان بأنّها فحشاء؟ بالتّزيين، لو كانت {ٱلۡفَحۡشَآءِ} واضحة؛ لكان الإنسان اتّقاها، لكن هو في الحقيقة يزيّن هذا كلّه!

انظروا الآن إلى الآيات ودعونا نرى الانتقالة القادمة: الآيات القادمة فيها كلام عن

{وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} يعني الآن نحن أمام مثل لهؤلاء الّذين اتّبعوا الشّيطان، هيّا اقرئي الآية:

{وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ}.

هو مثل أكيد أنّ فيه مُمَثَّلٌ له، وفيه مُمَثَّلٌ به، مُمَثَّلٌ له ومُمَثَّلٌ به، وهناك علاقة بين هذين الطّرفين؟ يعني لماذا يُضرب المثل؟ لأجل أن يقرّب الصّورة المعنويّة بالصّورة الحسّيّة، فتتصوّريها وتصبح قريبة.

من هو المُمَثَّلُ له؟ انظري: إلى الآية: {وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} إذًا: المُمَثَّلُ له، الّذي نريد أن نعرف حالته من؟ {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ}.

من هو المُمَثَّلُ به، ما هو المعنى؟ {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} ليسوا وحدهم؛ وإنّما {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} وداعيهم إلى الإيمان، {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} والشّخص الّذي يدعوهم إلى الهدى والإيمان.

صفة {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} وداعيهم إلى الهدى والإيمان، كصفة الرّاعي الّذي يصيح بالبهائم، وهي لا تفهم معاني كلامه؛ إنّما تسمع النّداء، ودويّ الصّوت فقط!

الآن تصوّري: البهائم، وراعيها يكلّمها، يناديها، يصدر صوتًا؛ هي الآن ما تفهم كلماته، هو يتكلّم، وهي لا تفهم الكلمات فقط تسمع مجرّد أصوات. هذه الآن صورة الرّاعي مع البهائم، سيقابلها صورة الدّاعي مع الكفّار؛ فهؤلاء الكفّار:

- {صُمٌّ} سدّوا أسماعهم عن الحقّ.
- {بُكۡمٌ} أخرسوا ألسنتهم عن النّطق به.
- {عُمۡيٌ} لا ترى أعينهم براهينه الباهرة.

فهم لا يُعملون عقولهم فيما ينفعهم.

إذًا: هؤلاء الكفّار يشبهون البهائم، وداعي الكفّار للحقّ كراعي البهائم، **هذه هي الصّورة:** البهائم لهم راعي يكلّمهم هم ما يفهمون من هذا الكلام {إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً} لا يسمعون إلّا دويّ الصّوت، لكن لا يفهمون ماذا يقول، كذلك الكفّار يدعوهم الدّاعي إلى الإيمان، وهم لا يفهمون ما يقول! ولذلك لا تستغربي أنّك تأتين تبيّنين للنّاس الحقّ تمامًا، وتكون أدلّته واضحة لدرجة أنّه لا يوجد هناك مجال للشّكّ، مع ذلك كأنّك ما كلّمتيه، ويعيد عليك مرارًا!

والسّبب: أنّ الإنسان إذَا ما انتفع بأدواته، والشّيطان تلبّسه فيها؛ حتّى الأمور الّتي نسمّيها منطقيّة، مسلّمات، لا يستطيع أن يسلّم بها، والآية (١٧١) كلّها بيان للآية: {أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ} فهؤلاء الكفّار وداعيهم للحقّ، **مثل:** البهائم الّذي يدعوهم راعيهم، ما استفادوا، لا يسمعون إلّا دويًّا؛ والكفّار لا يسمعون إلّا صوته، لا يفهمون، ولا يدركون، ولا يرون، ولا ينطقون بخير؛

فَهُمْ في النّهاية {لَا يَعْقِلُونَ}! ما هو العقل المنفي عنهم؟ عقل الرّشد. في كلّ مرّة تقرئين في القرآن عن قوم أنّهم {لَا يَعْقِلُونَ} يكون المنفي عنهم عقل الرّشد.

هيّا نكتب هذه القاعدة: نفي العقل في القرآن يُقصد به نفي عقل الرّشد.

ما هو عقل الرّشد؟ الّذي يعرف الحقّ، الّذي يفرّق بين الحقّ والباطل يفكّر في المآلات. هو الّذي يختار خير الخيرين. عقل الرّشد لابدّ أن يختار خير الخيرين، ويترك شرّ الشّرّين.

عرّفي: عقل الرّشد؟ عقل الرّشد يختار خير الخيرين، ويترك شرّ الشّرّين.

دعونا نضرب مثالًا على رمضان: نسأل الله يبلّغنا ونحن في زيادة إيمان، الآن عقل الرّشد عن الصّائم كيف أرشده للصّيام؟ دعونا نقول الآن: أنّه فكّر بعقله، عقل الرّشد هذا، ورأى: أنّ الجوع شرّ، لكن عذاب الله على ترك الصّيام أشرّ. ماذا فعل؟ اختار الصّيام.

الآن صلاة الفجر: النّوم خير.

النّوم خير وليس شرّ! اسألوا النّائمين! **فإذًا:** النوّم خير، وأجر صلاة الفجر خير من النّوم؛ لأجل ذلك ينادي المنادي: (الصّلاة خير من النّوم) لأجل أن يسمع الّذي معه عقل الرّشد، فيقارن بين النّوم والصّلاة، فيختار خير الخيرين، (الصّلاة خير من النّوم).

إذًا: ما هو عقل الرّشد؟ أنّه يختار خير الخيرين، ويترك شرّ الشّرّين، وهكذا يعيش حياته كلّها؛ لأنّه سيأتي في مواقف يرى فيها أنّه خير، ويرى بأنّه ينشرح مع النّاس، وهذا خير! لكن يبقى يحفظ القرآن، ويحبس نفسه، سيراه خير الخيرين؛ يفكّر في المآلات؛ فكيف يعرف خير الخيرين؟ بالمآلات، بالنّهايات. لا يفكّر في الّذي يصرف فيه وقته الآن؛ وإنّما يفكّر في النّتيجة الّتي يخرج بها؛ ولذلك مدحت السّنّة الشّابّ الّذي نشأ في طاعة الله، لماذا؟ لأنّ هذا تمكّن منه عقل الرّشد. لماذا تمكّن منه عقل الرّشد؟ شابّ والنّاس من حوله طائشون، وهو فكّر في خير الخيرين، وقال: (أذهب مع أصحابي ولا أفعل الحرام، لكن في هذا الوقت ممكن أكون فيه في خير الخيرين)؛ فرأى أن يختار خير الخيرين، ولمّا اختار خير الخيرين في وقت مبكّر؛ سيجد نتائجه في الحياة، يعني قارني بين أحد حفظ القرآن مثلًا، وعمره ١٦ أو ١٧ سنة، وبين أحد حفظ القرآن وعمره ٤٠ أو ٥٠ سنة! قارني بينهما في أثرها في الحياة، في أثرها في التّفكير، في أثرها في اختياراته المتقدّمة بعد ذلك، فالّذي يختار مثلا: وهو صغير أن يحفظ كتاب الله، ويفهمه ويقضي وقته فيه، سيكون أثر هذا الحفظ طويل المدى عليه، لكن الّذي يختار وهو في عمر ٥٠ سنة مثلًا، أو

٤٠ سنة، كم بقي له في الحياة؟ هل سيكون أكثر ممّا مضى؟! أكيد لن يكون أكثر ممّا مضى! فهناك فرق كبير بين من يستفيد من القرآن ٥٠ سنة، يعني: حفظه في عمر ١٥ و١٦ سنة، وبقي بعد ذلك إلى عمر ٦٥ فاستفاد كلّ هذه الفترة بالقرآن، وبين الّذي يحفظه في ٥٠ فما يستفيد منه إلّا ١٠ أو ٢٠ سنة! فهذا هو المدح لِـ (شَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ)[1] أنّه اختار خير الخيرين في وقت مناسب؛ وإنّه في أيّ وقت يختار خير الخيرين، أكيد خير وبركة! لكن الشّابّ الّذي نشأ في طاعة الله، يكون اختار خير الخيرين في توقيت مناسب؛ فينتفع طوال حياته بذلك، ينتفع بالقرآن، وببركته، يعني: لو فكّرت في سورة البقرة وأخذها بركة، ويحفظها في سنّ مبكّرة –الله يبارك فيكم جميعًا– وبعد ذلك كلّ مرّة يأخذ من بركتها شيئًا، يراجعها وينزع من بركتها شيئًا؛ ستستمرّ البركة في حياته زمنًا طويلًا! فهذا هو عقل الرّشد؛ أنّه تأتي أمام الأمور وتختار خير الخيرين، وتترك شرّ الشّرّين.

وكلّما نضج الإنسان أسرع، كان عقل الرّشد متمكّنا أكثر، يعني: دلالة النّضج: عقل الرّشد! الّذي اتّفقنا على معناه. وليست دلالة النّضج أن تبقى تعاند في هذا! وتعاند في هذا! وتقهر في هذا! وتمكر بهذا! لا! ليس هذا دلالة النّضج أبدًا! إنّما دلالة النّضج أن تختار لنفسك خير الخيرين، وتترك عن نفسك شرّ الشّرّين.

وهذا الكلام لابدّ أن يتكرّر على عقولنا: لأجل أن نعرف أين نوجّه قوانا؟ أين نذهب بقوانا العقليّة؟ بدلًا من أن نضيع في وسط الحياة ولا نعرف نختار لأنفسنا الصّواب!

الآية (١٦٨) بدأنا: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا} **وبعد ذلك بدأ النّقاش:** {وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ} فكان الخطاب لكلّ النّاس مرّة واحدة. **هنا عدنا فسمعنا:** عن الأكل من الطّيّبات، لكن الأكل للّذين آمنوا {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ} هنا حال مختلفة.

دعونا نقارن: بين الآية (١٧٢)، وبين الآية (١٦٨) قيل فيها؟ {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ} خطاب للنّاس عمومًا، أمامها؟ {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} خطاب للمؤمنين..

ما هو الأمر؟ {كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا}، وهنا: {كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ}.

الجملة الثّالثة في الآية (١٦٨): {وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ}.

الجملة الثّالثة في الآية (١٧٢): {وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ}.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩).

الآن نبدأ بالمناقشة: وإنّ هذه طريقة مهمّة جدّا عندما تجدين في السّياقات مثل هذه الآيات الّتي فيها تشابه. من المؤكّد أنّ الانتقالة لها معنى. يعني مثلما تصوّرتم الآن: الخطاب لكلّ النّاس، الله لا يمنع خيره عن الخلق كلّهم. **فإذًا:** {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ}؛ هنا: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} لهم حالة خاصّة في الأكل، الأكل عندهم له دلالة مختلفة عن غيرهم.

هناك: {كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا}، وتذكّروا: أنّ الله هو المنعم: {وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ}. هنا في المقابل: {كُلُواْ} ليس ممّا في الأرض؛ وإنّما: {كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ}، يعني ظهرت النّسبة لربّ العالمين؛ فهذا الّذي يميّز المؤمنون؛ أنّ منشأ تعاملهم مع الأكل على أنّه من رزق الله.

هيّا ستكتبون هذه الملاحظة: أنّه ممّا يميّز المؤمنون؛ أنّ منشأ تعاملهم مع الأكل أنّها من رزق الله.

سنرى النّقطة الثّالثة: ماذا ترتّب هناك في الآية (١٦٨) على الأكل؟ النّهي عن اتّباع {خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ}. لماذا تتوقّعين النّهي عن اتّباع {خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ} بعد الأكل؟

انظروا: الأكل، والشّبع، والغِنَى، يسبّبون البطر؛ إذَا لم يكن هناك عبادة، ولم يكن هناك طاعة، وليس هناك شكر، وليس هناك نسبة لربّ العالمين؛ يشعر الإنسان أنّه بنفسه متمكّنا من الأشياء، فماذا يحصل عند التّمكّن، وعند الشّبع؟ يحصل تملّك الشّيطان للإنسان!

فإذًا: بعد السّماح بالأكل، النهي عن اتّباع {خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ}، لماذا؟ لأنّ حال الآكل إذا لم يكن مؤمنا، قويّ الإيمان، سبّب له الأكل البطر. انظري: الفرق الكبير بين محافظتك على الأكل حين يكون قليلا، ومحافظتك على الأكل حين يكون كثيرًا! انظري الفرق! دعينا من الأكل –أستغفر الله العظيم– من كثرته لم يعد هناك تفكير سليم!

دعينا نتكلّم مثلًا: عن الحلوى الغالية الثّمن؛ حيث أنّك تمتلكين ثلاث حبّات منها. ماذا ستفعلين؟ ستكونين مخلصة جدًّا، حين تريدين أن تأكل صاحباتك معك؛ فإنّك تقسمينها بهدوء، وتخافين أن تتفتّت في الأرض؛ لأنّها ذات بال! بينما حين تكثر؛ يصبح ليس هناك مشاعر تجاهها! هذا هو؛ فأوّل ما يصير هكذا في النّفس وما يكون فيها إيمان؛ فالشّيطان يخطو بالخلق خطواته!

فالنّاس في الزّمن الماضي، كان أكثر شيء يشغلهم هو الأكل، ولأنّنا الآن في الرّخاء لا نشعر بهذا الأمر، لكن هذا الّذي يبحث عنه النّاس أنّهم يأكلون! فحين يشبعون، ويصلون إلى حالة من الرّخاء الشّديد، الشّيطان ماذا يفعل بهم؟ له خطوات! **في مقابل هذا:** الإيمان يجعل الإنسان في حالة مختلفة.

فإذا أكلتم {مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ} معناها: إذَا نسبتم النّعمة إلى الله، ماذا سيكون الواجب عليكم؟ {وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ}:

- **يعني هناك:** عندما تأكلون {لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ} في البطر، وفي الانحراف، وفي الكذب على الله.
- **وهنا يُقال في مقابل ذلك:** {ٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ} وهذا الأصل في خطاب المؤمنين.

فإذًا: نقطتان الأصل في خطاب المؤمنين:

الأمر الأوّل: أن يُطلب منهم نسبة النّعمة إلى الله.

الأمر الثّاني: أن يترتّب على ذلك عبادة الله.

ينسب النّعمة إلى الله، أين في الآية؟ {كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ}.

وأين يعبدون الله؟ {وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ}.

نأتي إلى الآية (١٧٣): {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ}.

بسهولة سيتّضح الرّابط. هنا سنتكلّم فقط عن الرّابط: **لمّا أمرنا في الآية السّالفة بتناول الحلال؛ فصّل في هذه الآية أنواع الحرام.**

وهذا هو الّذي سنستعمله بعد ذلك: كلّما أتتنا آية فيها أحكام؛ فقط سنأخذ الكلام إجمالًا، بينما الآيات الّتي فيها تعلّق بالإيمان، هي الّتي سندخل في تفاصيلها.

الآية (١٧٤): {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

هنا الكلام عن أهل الكتاب {ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ}، لكن ما مناسبة ذكرهم هنا؟ من أصلًا الّذين ذُكروا هنا؟ الّذين كتموا. **ما هي مناسبة ذكرهم؟ تحذير المؤمنين ممّا أحدثه اليهود في دينهم، من تحريم بعض ما أحلّ الله لهم، وتحليل بعض ما حرّم الله عليهم.**

يعني بمناسبة الكلام عن الأكل، وعن الإباحة، وعن المحرّم، قيل للمؤمنين: لا تفعلوا مثلما فعل هؤلاء.

ولذلك وصفهم في الآية التّالية، الآية (١٧٥): {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ}.

إذًا: هذا تابع لحكمهم السّابق، الحكم السّابق: {لَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} وصفهم بأنّهم: {ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ} السّبب أنّهم حرّموا الحلال وأحلّوا الحرام.

الآية (١٧٦): {ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ}.

هذا تعليل لشدّة الوعيد على الكتمان، يعني هم كتموا الحقّ، فتوعّدهم الله بكلّ هذا الوعيد، ما هو تعليل الوعيد؟ لماذا الّذي كتم عليه كلّ هذا العذاب؟ عُدّوا العذاب السّابق:

١. {أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ}.

٢. {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ}.

٣. {وَلَا يُزَكِّيهِمْ}.

٤. {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

٥. حكم عليهم أنّهم: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ}.

٦. وبعد ذلك: {فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ}.

كلّ هذا له سبب! **إذًا:** لماذا كلّ هذا الوعيد؟

لأنّ {ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ}، وللبيان وللاتّباع، وأهل الكتاب جعلوه لمصالحهم، ولأجل مشاقّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

فوصفهم الله أنّهم: {ٱشْتَرَوُاْ} {ٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ} **وأنّهم:** {ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ}.

تصوّري: يبيعون المغفرة ويشترون بدلًا عنها العذاب! ويبيعون الهدى ويشترون بدلًا عنه الضّلال! كلّه لأجل مصالحهم.

الكتاب نزل تبيانًا، يعني هذه الآية فيها تعليل لكلّ الوعيد السّابق، لماذا وعدهم كلّ هذا الوعيد؟ لأنّ {ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ}، ولإظهار الحقّ، ولبيانه، ولمتابعته وليكون شاهدًا على صحّة الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- يعني التّوراة والإنجيل في يد أهلها شاهدة على صحّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. هم ماذا فعلوا؟ كتموها {ٱشۡتَرَوۡاْ} {ٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِ}! و{ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ}!

الحمد لله هكذا أنجزنا هذا الجزء، الجزء القادم -إن شاء الله- يكون يسيرًا في ذكر العلاقات.

جزاكم الله خيرًا.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدارسة سورة البقرة

"دارسة إجماليّة"

أ.أناهيد بنت عيد السميري

"الجزء الثّالث"

اللّقاء الخامس عشر: الخميس ٢ جمادى الآخر ١٤٤٠ هـ

"مدخل إلى مدارسة المقصد الثّالث (١٦٣_٢٨٣)"

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله توكّلنا على الله، نُكمل ما بدأناه في دراسة سورة البقرة، **مُذكّرين أنفسنا بهذه النّعمة العظيمة، وهي: نعمة الاجتماع على كتاب الله** – نسأل الله عزّ وجلّ أن يحفظ علينا هذه النّعمة– **وخاصّة نعمة الاجتماع حول سورة البقرة**؛ فإنّ لها من الفضل ما لها، وكلّ من وصلت هذه المعاني؛ الّتي في السّورة، إلى قلبه؛ فقد وصل إلى الاستسلام لربّ العالمين.

وهذا الاستسلام هو أصل الإيمان، وأثره في الحياة بركة عظيمة؛ **ولذلك سورة البقرة لها بركة، أصل البركة أن يقع في نفس الإنسان الاستسلام لربّ العالمين، فتهون عليه المسائل، ويسهل عليه المُتابعة، ويسهل عليه الالتزام بالشّرع**، أسأل الله –عزّ وجلّ– أن يُذيقنا برد اليقين، وأن يزيدنا إيمانًا، واستقامة على الطّريق المستقيم، اللّهمّ آمين.

كنّا انتهينا فيما مضى من المقصد الأوّل، والمقصد الثّاني، وابتدأنا في المقصد الثّالث.

المقصد الأوّل والثّاني، يمكن جمعهما في عبارة واحدة، وهي: دعوة النّاس إلى دين الله، سواء كانوا أهل كتاب، أو لم يكونوا أهل كتاب.

المقدّمة قسَمَت لكم النّاس إلى ثلاثة أقسام؛ فهذا قطعًا؛ فالنّاس في النّهاية؛ كأنّك تقولين: إن قامت القيامة سينقسم النّاس إلى ثلاثة أقسام؛ فهذه أقسام النّاس الّتي لا يمكن أن تتغيَّر. تتصنّف؟ أيّ إنسان يسأل عن نفسه: هو من أيّ صنف؟

١. **من المؤمنين؟** – الله يجعلنا كذلك –.

٢. **من المنافقين؟** – نعوذ بالله –.

٣. **من الكافرين؟** – نعوذ بالله –.

فإذًا لا يوجد إلّا هذه الثّلاثة أصناف للنّاس عمومًا، **يعني: كأنّ الثّلاثة أقسام لحقيقة النّاس.**

ثم بدأنا من عند: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ}[١] وبعد ذلك: {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ}[٢].

هنا نداء، وهنا نداء: **النّداءان دعوة إلى الاستسلام لله:**

النّداء الأوّل: للنّاس كافّة.

النّداء الثّاني: خاصّ، لمن كان عنده كتاب سابقًا.

بهذا: انقسم النّاس بطريقتين [في الدّعوة]. أنت لابدّ أن تُفرّقي في الدّعوة، بين الّذي عنده كتاب سابق، ويعرف الوحي ويعرف الرّسل، وبين الّذي لا يعرف.

لو نتكلّم في الواقع الآن: دعوة النّصارى، دعوة اليهود؛ لا يمكن أن تكون مثل دعوة البوذيّة، الهندوسيّة، لا يمكن أن تكون سواء، والسّبب؟ "أهل كتاب، ليسوا أهل كتاب."

إذًا المقصد الأوّل والثّاني، يعودان لنقطة واحدة؛ الّتي هي دعوة النّاس، لكن صار هناك فرق بين دعوة النّاس هنا، ودعوة النّاس هنا، ما هو الفرق؟ الخلفيّة السّابقة، وإذا كان هناك فرق في الخلفية السّابقة في دعوة الله للخلق، يصير معنى ذلك: أنّ الّذي يدعو لدين الله، المفترض أن يركّز في الخلفيّة السّابقة للناس؛ لأنّ كلّ خلفيّة تُسَبِّبُ نفسيَّة مختلفة: ما الّذي ترفضه؟ وما الّذي تقبله؟ فالخلفيّات السّابقة تُسَبِّبُ نفسيّات خاصّة؛ فيختلف النّاس في خلفيّاتهم، إذًا سيختلفون في طريقة مخاطبتهم في الدّعوة.

أذكّركم مرّة أخرى، بطريقة أخرى للنّظر إلى السّورة: لأنّ المتعة في أنّك ترين نفس السّورة من جهات متعدّدة، وفي النّهاية عندما تمرّي على الآيات؛ تزدادي يقينًا بالّذي فهمته.

الآن لو نظرنا إلى [معنى الإسلام] الّذي تدور حوله السّورة، أليست قصّة البقرة هي الّتي دلّت على أنّ بني إسرائيل ما استسلموا، **والسّورة تقول لك: لا تفعلي مثلهم؛ إنّما استسلمي لله.**

ما هو الإسلام؟ الاستسلام لله بالتّوحيد، والانقياد له بالطّاعة.

---

(١) سورة البقرة: ٢١.

(٢) سورة البقرة: ٤٠.

معنى ذلك: أنّ المقصد الأوّل، والمقصد الثّاني تناقشا في ذلك: [الاستسلام لله بالتّوحيد.]

الآن المقصد الثّالث يناقش: [والانقياد له بالطّاعة.].

فصارت السّورة بهذه الطّريقة:

- **تقسيم النّاس.**

وبعد ذلك:

- **دعوتهم إلى الإسلام:** فلمَّا أتت دعوتهم إلى الإسلام، يعني الاستسلام لله بالتّوحيد، أتت الآية (٢١) وأتت الآية (٤٠).

فإذًا، انتهينا من الاستسلام لله بالتّوحيد، الآن جاء:

- **الانقياد له بالطّاعة:** يعني: الشّرائع، إذًا: اسمع هذه الشّرائع وانقاد لها –هذا هو المقصود– والنّاس على ذلك، ينقسمون في الاستسلام لله بالتّوحيد إلى أقسام، وينقسمون في الانقياد له بالطّاعة إلى أقسام؛ ما هو المقصود بـ (إلى أقسام)؟ على حسب درجة طاعتهم، لكن إذَا تحقّق التّوحيد؛ لابدّ أن يكون هناك أصل الطّاعة؛ ولو حصلت مخالفة؛ يكون درجة الإنسان على قدر درجة المخالفة.

لذلك مرّة أخرى: هل كنت تتوقّعين أن يُدعى إلى الشّرائع، قبل أن يُدعى إلى التّوحيد؟ لا. لماذا؟ هناك أسباب كثيرة تجعلكم تتأكّدون: أنّه لابدّ أن يُدعى إلى التّوحيد أوّلًا، وبعد ذلك إلى الشّرائع، ما هي؟

السّبب الأوّل المهمّ: أنَّ الاستسلام للشّرائع مبني على معرفة الله، يعني: لو عرفت أنَّ الله حكيم، عليم، كامل الصّفات، ستكون متيقّنًا: أنَّ شرعه كامل؛ فتستسلم لشرعه.

السّبب الثّاني: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا دعا؛ دعا للتّوحيد أوّلًا، بقي في مكّة ١٣ عامًا، يدعو إلى التّوحيد؛ والصّلاة ما فُرِرَتْ إلّا في السّنة العاشرة، معنى ذلك: أنّه قبل هذا كلّه؛ كانت الدعوة إلى التّوحيد، ثمَّ أتت الشّرائع بعد ذلك لمّا ذهب إلى المدينة، وكنّا اتّفقنا أيضا على ملاحظة مهمّة: أنَّه حتى لمّا ذهب للمدينة؛ كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يدعو إلى التّوحيد، لكن الشّرائع أتت بعد التّوحيد.

السّبب الثّالث: الآن التّوحيد هو الّذي يُدخل في الإسلام، والأعمال تابعة له؛ فلو جئنا نحكم على أحد مقصِّرٍ في الأعمال، لكن معه توحيد؛ ماذا ستكون النّتيجة؟ إذَا كان معه توحيد، وحاصل تقصير في الأعمال؛ يُرجى له أن يدخل الجنّة: ما دام هناك توحيد؛ حتّى لو كان هناك تقصير في الأعمال؛ يُرجى له أن يدخل الجنّة. إلّا أنَّ أهل السّنّة والجماعة، يتّفقون على أنَّ [الصّلاة] هي: العمل الوحيد الّذي يُعتبر فقدانه، فقدانا للدّين؛ لكن لو كان هناك تقصير في أيّ شيء آخر، وكان معه توحيد، وليس مشركا؛ هذا يُرجى له أن يدخل الجنّة. كما في الحديث: (مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ -أَوْ خَرْدَلَةٍ- مِنْ إِيمَانٍ)[1]؛ يدخل الجنّة في النّهاية.

فهذه الثّلاثة أسباب، تجعلنا في النّهاية **نقول: لابدّ أن تكون الدّعوة للتّوحيد أوّلًا، ثم تأتي بعدها الشّرائع.**

ومثل هذه المسائل؛ تحتاج إلى تفكير، وتفكير، يعني لا تتركوا أنفسكم، فقط تأخذون المعلومات، ولا تجمعونها مع بعضها؛ لكي ترتّبوا علّة أشياء، تجدونها في الشّرع، تجدونها في الأحكام.

يعني مثلًا: لو أتينا الآن ونظرنا إلى المجتمع المسلم، لماذا خرج الخوارج على المجتمع المسلم؟ لأنَّ نظرتهم هي النّظرة المثاليّة: أنّه أنت مجتمع مسلم معك توحيد؛ فإذًا لابدّ أن تكون كلّ أعمالك صحيحة، ولا يقع منك أيّ عمل خطأ! ومن ثَمَّ لو صار أيّ عمل خطأ -طبعًا على درجة معيّنة عندهم، لهم مقياسهم، لكن أنا بصدد تفهيمكم أصل الفلسفة الّتي يفكّرون بها- عندهم المجتمع المسلم كلّ أعماله صحيحة؛ بحيث أنّه لو أخطأ؛ كفر! فلا يقدّرون أنّ الأعمال تابعة للإيمان، فإذَا وُجد الإيمان، وقصُرت الأعمال؛ فحتّى لو قصُرت الأعمال؛ فلايزال هذا مسلمًا.

أكيد أنّكم سمعتم -ولو كنتم صغارًا- مثلًا: التّفجيرات الّتي صارت في المُحيّا فيما سبق، في ١٤٢٣هـ، تفجيرات وزارة الدّاخليّة: كلّ هذا الّذي حصل، ماذا كان تفكيرهم؟ يعني: هؤلاء الّذين فجّروا أناس من بيننا، ماذا كان تفكيرهم؟ المثاليّة، ما هي هذه المثاليّة؟ وغالبًا، لا يُلتقط في مثل هؤلاء الخوارج إلّا هذه النّفسيّة المثاليّة، ما هي النّفسيّة المثاليّة؟ النّفسيّة المثاليّة تقول: (أنت مسلم، لابدّ بأن لا تُخطئ!) إذَا وقع منك خطأ في الشّرع؛ تكفر! مثلًا: تعامل بالرّبا، قصّر في صيامه؛ هذه بالنّسبة لنا في الإسلام: كبائر عظيمة، ولها عقوبة، لكنّها لا تخرج من الدّين، ليست كفرًا؛ فهي كبيرة نعم، لكن لا تخرج للكفر! فهم يقولون: مادامت تعاملت بالرّبا، أو قبلت التّعامل بالرّبا، أو أعنت وليّ الأمر الّذي يقبل التّعامل بالرّبا،

(١) أخرجه البخاري (٧١١٢).

تصير أنت وهو كفّارًا! فعندهم إذَا وقع الذّنب؛ الّذي هو من الكبائر، يعني: وقع الكفر مباشرة! فإذًا أنت كافر ما هي عقوبتك؟ مباشرة القتل! ليس هناك تفاهم؛ وإنّما يقتلونه! وإذا تمكّنوا من وليّ الأمر قتلوه! وإذا تمكّنوا ممّن هو أسفل منه قتلوه! وإذا تمكّنوا من جنوده قتلوهم! وأنتم يا مجتمع، يا من قبلتم بوليّ الأمر هذا، كذلك أنتم كفّار! ومتى ما قدروا عليك؛ فعلوا بك! ولذلك جاءت المحاولتين للتّفجير في الحرم المكّي، والحرم المدني!

فأيّ دين هذا الّذي تتوقّعينه؟! أحدهم يصلّي، والآخر يأتي يقتله!

نحن مطلوب منّا عندما نقاتل الكفّار –الكافر الغير موحّد– إذَا كان في كنيسته، أو في ضيعته، وكان يصلي على دين النّصارى أو اليهود؛ فلا يحقّ لي أن أدخل أقتله، وهو على دينه الكفر، كيف وأنا على دين الإسلام؟! لكن كلّ القضيّة: المثاليّة!

لذلك انظري: هذا الأسلوب موجود في تفكير النّاس عمومًا! يعني:

مثلًا: هؤلاء الصّغار، حفظة القرءان، لو رآهم أحد بالخارج يفعلون أيّ شيء خاطئ؛ فيقول: (أنت الّتي تدرسين! الّتي تحفظين! ثمّ تفعلين كذا وكذا!) إلى آخر العبارات! وكأنّها جريمة! لماذا؟ هي النّظرة المثاليّة! وهذا هو الخطأ؛ ومن ثَمّ فإنّ كثير من النّاس يحصل له انسحاب من الاستقامة بسبب هذا الكلام.

فمثلا: أنت تكونين طالبة، تدرسين بالمعهد، أو في أيّ مكان شرعيّ، يأتون يقون لك: (أنت الّتي تدرسين، تفعلين هكذا!) رغم أنّ فعلها لا فحشاءَ فيه، ولا منكرًا! ولو كانت فحشاء ومنكرًا! –نعوذ بالله من الفحشاء والمنكر– لكن لو كانت؛ فإنّها لا تُخرج الإنسان من الدّين.

فالمشكلة الرّئيسيّة؛ أنّه إذَا صار أيّ خطأ، ينجرّ على الدّين، ومن ثَمَّ فإنّ هذا الّذي قام بالخطأ؛ كأنّه والعياذ بالله خرج من الدّين! **وهذه جريمة عظيمة في حقّ المجتمع، وهي بالضّبط الّتي صنعت الخوارج!**

تصوّري: لو أنّ أحد الطّالبات الكبار في المعهد انتقدت أحد الصّغار، يبقى عندهم التّفكير: أنّه من المفروض أن يكون الّذي يدرس مثاليًّا.

فعندنا واحد من نتيجتين: فإمّا أن تترك الدّراسة؛ لأنّ النّاس يقولون لها: (لابدّ أن تكوني مثاليّة)، أو أن يبقى هذا التّفكير في ذهنها، بهذه الطّريقة، ورويدًا، رويدًا فتصبح تنتقد الّذي يتصرّف خطأ، إلى أن تَكْبُر بذرة الخروج في نفسها، وتكون قد أصبحت تفكّر بنفس الطّريقة أنّه: (المفروض أيّ أحد عنده دين، لا يقع منه الخطأ!).

وهذ الّذي حصل! فالخوارج الشّباب الّذين في تفجيرات المُحَيَّا، كم كان عمرهم؟ من عمر ١٦ أو حتّى أصغر! ممكن ١٥ إلى عمر ٣٠! هذه فترة الفتوّة، الّتي يكون فيها التّفكير لازال مضطربًا، وهذه هي الفكرة بالضّبط: (مسلمون؟! يعني: لا يخطؤون! مؤمنون؟! يعني: لا يقع منهم كذا!) واضح أنّه ليس هناك عندهم ترتيب للأخطاء! نحن نقرّ أنّ الخطأ خطأ، ويُلام عليه فاعله، وهناك كبائر، وتعتبر جريمة، لكنّ الكبيرة لا تخرجنا من الدّين! لابدّ أن تُفرّق: الكبيرة لا تخرجنا من الدّين.

فهذا السّبب المهمّ، الّذي يجعلنا نفهم دائمًا: أنّ التّوحيد أوّلًا، يعني: لو كان موحّدًا، وأخطأ؛ لازلت تَرْجو له رجاءً تامًّا، أن يدخل الجنّة.

مثلًا: فيما مضى، مات أحدهم وهو يُغنّي، هذا ماذا قيل فيه؟ يقولون لك: (هذا لا نقول له: رحمه الله)! مادام مُوَحِّدًا؛ فإنّنا نقول: (رحمه الله) وليست لك علاقة بسوء الخاتمة! وإنّما أنت لك علاقة: هل هو مسلم أم ليس مسلمًا؟ ما هو حقّ المسلم؟ **فهذه حقوق، تتحاسبين عنها** –فهذه هي المشكلة!– أنت تقولين: (سوء خاتمة) يعني: كافر! فهذا هو المعنى! –نعوذ بالله من هذا التّفكير– يعني لا نتناقش هل هي سوء خاتمة أم حسن خاتمة، ولا نتناقش هل هي كبيرة، أم هي ليست كبيرة.

فالكبيرة، كبيرة، وعظيمة عند الله، لكن لها حدود! فهذه هي المشكلة: [الانطلاقة الفكريّة]: بأن آخذ جزءا من الدّين، وأخرج به!

لأجل ذلك، كلّ مرّة، نؤكّد على أنفسنا: التّوحيد أوّلًا؛ إذَا وُجد التّوحيد؛ فإنّه بعد ذلك إذَا قَوِيَ التّوحيد؛ يعدِّل السّلوك الخارجي. أنت عندما تَرَين سلوكًا غير صحيح، تُؤوّليه لأحد أمرين:

١. نفسه غلبته، وطباعه غلبته.

هذا تأويل، أو:

٢. هناك ضعف في إيمانه، الله يقوّي إيمانه.

يعني أنت عندك دعاءان، إذَا رأيت سلوكًا غير سويّ، لأحد مُوَحِّدٍ:

١) **إمَّا: (الله يقوّيه على طباعه)**؛ لأنّ طباعه الّتي نشأ بها تكون قويّة.

٢) **أو: (الله يقوّي إيمانه)**؛ لأجل أن يكون إيمانه حاجزًا له عن الخطأ.

فقط، وانتهينا! **وأيّ شيء آخر، يُعتبر من التعدّي على المسلمين!**

وإنّ العلاقة بيننا وبين المسلمين حقوق! سنُحاسَب عليها يوم القيامة.

هذا كلّه لنرجع نضع نقطة البداية، أنّ: **[التّوحيد] أوّلًا قبل أيّ شيء: لابدّ أن نفكّر في [التّوحيد]، وفي تصحيحه. وإذا وجد التّوحيد، استسلم الإنسان للشّريعة. هذا حقّ! هذا يقين! أنّه إذَا صحّ التّوحيد، صحّ الاستسلام للشّريعة.**

هذا كلّه سيُحَفِّظْنا ضبط سَيْر السّورة، **وسيُحَفِّظْنَا أنَّ أوّل كلام، أتى في الكلام عن الشّريعة: هو قوله تعالى:** {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ}[1] **لماذا؟ لأنَّ هذا تأكيد، على أنَّ العقيدة، مبدأ الشّريعة.**

سؤال مهمّ: هل الخوارج كفّار؟ اختلف أهل العلم في الحكم عليهم؛ هناك من أهل العلم مَنْ ذَكَرَ أنَّ الخارجي الّذي لا يعتبر دين الله، ويترك الحكم لهواه، وتفاصيل كثيرة –لا يكفي الوقت أن أشرحها– يعتبرونه كافرًا.

والّذي يكون أقلّ منه، ويعتبرون دين الله؛ فإنّ هناك خوارج يعتبرون أنّ ما يقومون به إنّما هو دين الله، وهنا خوارج يتعدّون ذلك فَيَرَوْنَ أنّ الدّين إنّما هو ما شرّعوه هم! فعلى ذلك صارا نوعان.

وكثيرًا من خَوارج عصرنا الحقيقيّن؛ يكونون ينفّذون أجندة غربيّة، ضحيّتهم الشّباب عندنا:

- فيكون الّذي ينفّذ هذه الأجندة الغربيّة –غالبًا– يكون مرتدًّا عن الدّين!
- والّذي ينفّذ من شبابنا –غالبًا– يكون متمسّك بالدّين!

فصار دائما هناك طرفان: الّذي تستطيعين أن تحكمي عليه أنت بالكفر، وهذا بعدم الكفر.

يعني: هناك أشخاص يُعتبرون بمثابة الجواسيس على البلاد! يعني: في حكم النّاس، يُعتبرون قاموا بالخيانة العُظمى! خانوا بلادهم، وباعوا أنفسهم للعدوّ؛ سواء كان العدوّ الرّوافض، أو غيرها.

هؤلاء ماذا فعلوا؟ بسبب عداوات، بسبب حقد، بسبب مواقف، بسبب ظلم صار له في البلاد، بسبب أيّ شيء، ماذا يفعل؟ يقوم بتهييج النّاس على البلاد! فغالبًا ما يكون هذا أصلًا قد ارتكب الخيانة العظمى، ارتكب الارتداد عن الدّين، يعين أهل الكفر على أهل الإسلام! لكن هو يأخذ الشّباب ويُثيرهم، يُثيرهم، وبعد ذلك يضع لهم مقاعد، ويقول لهم: (أنت دورك كذا، افعل في البلد كذا، وأنت

(١) سورة البقرة: ١٦٣.

دورك كذا،)! ولذلك يمكنك أن تتصوّري كيف أشعرهم أنّ قتلك لوالديك، قُربة إلى الله، مثل: هذا موقف التّوأم الّذي حدث، والاثنان اللّذان أخذا ابن عمّهم وقتلوه في البرّ، يعني: لو قليلًا من التّفكير؛ كانوا سيعرفون أنّ الإسلام لا يمكن أن يكون من مطلبه الخيانة!

كيف برّ الوالدين، يُقابله قتلهم؟! طبعًا هم عندهم ما يقولونه! فإنّهم يأتون يقولون لك: (عبد الله ابن أُبي المنافق، ولده كان يُريد أن يقتله إلّا أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- منعه لأسباب تتّصل بذاك المجتمع، لكن الآن أنت قتلك لوالديك قُربة! والديك منافقين!) بهذا الشّكل! نسأل الله أن يحفظ الشّباب من المؤثّرات الّتي أحيانًا نكون نحن جزء منها — يا جماعة! - **وهذا ما أردت أن أقوله: أحيانا نكون جزء من هذه المؤثّرات!** نشعر أنّه من المفروض أن يكون مثالي، مثالي! إلى أن يصل المسكين في النّهاية؛ أن يعتقد أنَّ الدّنيا مثاليّة! فيجد أنّ الطّريق إلى الجنّة: أن يقتل كلّ واحد يخالف أيّ مخالفة!

نحن كلّ يوم نتوسّع أكثر، لكن لا بأس -إن شاء الله- يكون الكلام مفيدًا.

مراجعة تقسيم مقاصد السّورة

أريد أن أتأكّد: أنّ أرقام الآيات في أذهانكم واضحة:

- **من (١_٢٠) مطلع السّورة.**
- **من (٢١_٣٩) المقصد الأوّل.**
- **من (٤٠ _١٦٢) المقصد الثّاني.**
- **من (١٦٣) بدأنا في المقصد الثّالث:**
  - **كانت مقدّمة المقصد الثّالث، هي: الآية (١٦٣).**
  - **وما بعدها في الكلام عن: نِعَمِ الله، والمحبّة، واستحقاقه للمحبّة وحده.**

الآن سندخل في صلب مناقشة الشّرائع.

مدارسة الآية (١٧٧) عرض إجمالي للشّرائع الدّينيّة

بسم الله، توكّلنا على الله، ندخل في إجمالي الشّرائع الدّينيّة، الآية (١٧٧):

يقول الله عزّ وجلّ: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.

بسم الله، الجزء الأوّل من الآية النّقاش فيه حول البرّ؛ هناك: نفي، ثمّ هناك: إثبات: {لَيْسَ الْبِرَّ} كذا وكذا؛ وإنّما {الْبِرَّ}: كذا وكذا.

دعونا نناقش فقط الجزء المنفيّ، وبعد ذلك نبدأ بالإثبات؛ الّذي فيه مجمل الشّرائع:

الآن، لماذا الكلام عن نفي أنّ {الْبِرَّ} هو: {أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}؟ هذا سيكون تابعًا لمسألة تحويل القبلة. إذًا كأنَّ هذا إغلاق لموضوع تحويل القبلة. والجماعة الّذين أزعجوا المسلمين في مسألة تحويل القبلة، وأشعروهم بأنّه: (أنتم ما لكم دين؛ فيوم تقولون بأنّ القبلة على بيت المقدس، ويوم تقولون بأنّ القبلة على الكعبة!) فقيل لهم كلّ الرّدود الّتي مرَّت معنا سابقًا، قبل أن ندخل إلى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}.

وهنا أتى الفصل: بأنَّ من يريد أن يتقرَّب إلى الله؛ فشرائع الله، تامَّة الوضوح، شرائع الله كلّها سُمِّيت: {الْبِرَّ}؛ فإذًا هذه الجملة الأولى الّتي سنكتبها:

النّقطة الأولى: الآية دلَّت على أنَّ الشّرائع هي: {الْبِرَّ}.

النّقطة الثّانية: نفت الآية أن يكون {الْبِرَّ} متّصلًا بالجهات، وبيّنت حقيقة {الْبِرَّ}.

إذًا، هذا كلّه على الجزء المنفي، يعني: النّفي والإثبات: أفهمنا أنّ الدّين كلّه اسمه: {الْبِرَّ} ثمّ نَفَتْ أن يكون {الْبِرَّ} متّصلًا بالجهات، وبيّنت ما هو {الْبِرَّ}.

الآن دعونا نقسِّم {الْبِرَّ} الّذي في الآية، إلى قسمين أساسيّين -بناءً على كلّ النّقاش الّذي سبق- وبعد ذلك نبدأ في التّقسيم الفرعي:

الإيمان والأعمال، ما هو الإيمان في الآية؟ انظري إلى الآية: {مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} هذا الجزء الإيماني.

إذًا {الْبِرَّ} – الّذي عرفت بأنّه شرائع الدّين– ينقسم إلى قسمين: [باطن وظاهر]: الباطن هو الإيمان.

نأتي للظّاهر الآن، ونبدأ في تقسيمه:

وستلاحظون الآن: أنّ الباطن الّذي تمّت مناقشته سابقًا في كلّ الأمور؛ فإنّه الآن لن يتمّ إعادة مناقشته؛ وإنّما الّذي سيُبدأ في مناقشته، الجزء الثّاني الّذي هو: الظّاهر.

فإذًا، تعالي إلى الظّاهر، واقسميه معي:

الإنفاق: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ}.

وبعد ذلك: {وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} وبعد ذلك: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا} الوفاء بالعهد، وبعد ذلك؟ {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ}، وبعد ذلك، الله –عزّ وجلّ– قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، يعني: آخر جملتين في الآية: ثناء عليهم.

سنقسم الآن هذه الحالة إلى ثلاث أقسام؛ الّذي هو: **أصل {الْبِرَّ}**:

١) **الصّبر.**

٢) **الوفاء بالعهد.**

٣) **الصّلاة والإنفاق.**

الصّلاة، والإنفاق، اللّذان يُسَمَّيَانِ، بـ:

⇐ **الإحسان في عبادة الله.**

⇐ **والإحسان إلى خلق الله.**

معناها: الصّلاة، والإنفاق، اسمهما: (الإحسان).

الآن الدّين، فيه ثلاث قِيَمٍ أساسيّة: الصّلاة، والصّبر، والوفاء بالعهد.

١) **الإحسان: ويكون في عبادة الله، وفي التّعامل مع النّاس.**

٢) **والصّبر.**

٣) **والوفاء بالعهد.**

الآن في هذه الثّلاثة، لو أردنا أن نقوم بعمليّة ترتيب لها، ترتيب من حيث: ما هو الأساس الّذي لابدّ أن يكون في نفسي من القيم؟ وما هو التّابع له، من بين هذه الثّلاثة؟ **الصّبر**، ولو لم يكن هناك صبر؛ ما كنَّا صبرنا على بعضنا البعض، صحيح؟ لما كنتم صبرتم عليّ، ولما كنت صبرت عليكم؛ فيصير [الصّبر] هو أوّل شيء، قبل أن نَتَعلّم، قبل أن نُعلّم، قبل أن نتفاهم، قبل أن نتكلّم، فأيّ شيء يصير عند الإنسان، لابدّ من الصّبر فيه!

فإذًا هذه هي القيمة الأساسيّة. على أساس هذه القيمة، ماذا يأتي؟ ماذا يسهل عليك لو صبرت؟ الإحسان. سيسهل عليك؛ أن تُحسني: سواء في عبادة الله، أو في مُعاملة الخلق، وسيسهل عليك الوفاء بالعهد؛ فتعطي النّاس حقوقهم؛ فيصبح من السّهل عليك! لأنّك صابرة!

ولذلك؛ **هذه الآية فيها [سرّ عظيم]: جمعت للنَّاس أصول القيم**: ماذا ينبغي لو أردت أن تُربّي في نفسك: – فأنت الآن وصلت إلى مرحلة، صرت فيها مسؤولة عن تربية نفسك، تُفكّري جيّدًا، وتعرفين كيف تختارين لنفسك- فعندما تقومين بأيّ تصرّف؛ تقولين لنفسك: (هل هذا يُوافق الصّبر، أم لا يُوافق؟) ، (هل أنا حبست نفسي قليلًا، وفكّرت، واتّخذت قرارًا، أم ما أن نادتني الفكرة، إلّا وجريت لها!) لابدّ أن تسألي نفسك هكذا في كلّ مرّة.

الصّبر يأتي من الإيمان، ويأتي بتدريب النّفس، [يجب] تدريب النّفس، يعني: لا يأتي أحد يقول: (لا! فأنا عجول! أنا عصبيّ! أنا...) لا! وإنّما ربّنا أعطاك الإمكانيّة؛ الّتي تدرِّب نفسك بها.

إذًا هذه هي القيمة الأساسية؛ الّتي على أساسها، تصير بقيّة القيم؛ ولذلك الله –عزّ وجلّ– قال: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا}[١] بماذا؟ {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}، وحين تقرئين في تفسير الآية؛ تصلين إلى أنَّ الصّبر أساس كلّ هذه الحالات: الإيمان، والعمل الصّالح؛ لأنّك لا تقدرين على أن تقومي إلى الصّلاة في وقتها، وتقومين بأدائها في وقتها؛ إلّا إذا صبرت! إلّا إذا صبرت على صَاحِبَاتِك اللّاتي يناديك وقت صلاة الظّهر، إلّا إذا صبرت

(١) سورة العصر: ١_٣.

على الجوع؛ فتتركي الأكل، وتقومي للصّلاة، إلّا إذا صبرت في البيت، وقت العصر، على أن تنامي، إلّا إذا صبرت في المغرب، على أنّك تهتمّين بنفسك؛ وحين يقترب العشاء. فالصّبر هو الأساس!

إذًا، هكذا اتّفقنا: بأنّ هناك خطّة، والإنسان، يربّي نفسه فيها؛ فلابدّ أن تعرفوا: أنّنا خرجنا عن أنّه هناك أحد يُربّينا؛ ففي عمركم الإنسان المفروض أن يربّي نفسه. ما هو أوّل شيء يربّي نفسه عليه؟ الصّبر، ولابدّ أن يعرف: بأنّ مصلحة الصّبر لن تعود على أحد؛ فليسوا النّاس من سيستفيدون من صبرك!

إذًا من الّذي سيستفيد من الصّبر؟ أنت الّتي ستستفيدين! سينفعك، وسترين بأنّه في يوم من الأيّام – قريبا– ستعرفين بأنّ الصّبر ينفعك.

إذًا الصّبر، يُبْنى عليه كِلَا الطّرفين؛ اللّذين هما: الإحسان، والوفاء بالعهد. وفي السّورة سيأتينا في الوفاء بالعهد: أحكام الطّلاق، وأحكام الزّواج، إلخ... هذه لابدّ أن تحتاج إلى وفاء بالعهد؛ فإذَا لم يكن هناك وفاء بالعهد؛ لا يمكن أن تقوم الحياة! وحتى حين تصير هناك فُرقة؛ فإنّه لو لم يكن هناك وفاء بالعهد؛ فإنّهم لن يفترقوا ووجوههم بيضاء من بعضهم البعض، لن يهتمّوا أن يفترق ووجهه أبيض من الثّاني! لا! وإنّما عادي أن يَسْوَدَّ وجهه –فليس لديه مشكلة!– لكن حين يكون هناك وفاء بالعهد؛ فإنّ الإنسان عندها لا يريد أن يخرج، وقد أساء إلى غيره؛ حتّى في الخروج! لأنّه ليس فقط في إقامة الحياة؛ وإنّما حتّى في الخروج منها.

على كلّ حال، سيتبيَّن لنا – إن شاء الله –.

الله يمتّعنا بكتابه، ويعيننا على الامتثال له. فإذًا في الآيات الآن، ستقولون لي: أين الإحسان؟ أين الصّبر؟ أين الوفاء؟

نحن سنترك الجزء الّذي فيه الاعتقاد، ونبدأ بالجزء الّذي فيه العمل: ما هو الّذي يحتاج إلى إحسان؟ ماذا ستقولين؟ {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ}: هذا كلّه ستدخلينه تحت الإحسان، ستقسّمينه إلى قسمين: القسم الأوّل: الإحسان إلى الخلق.

والإحسان في عبادة الله.

أمام الإحسان إلى عباد الله، ماذا ستكتبين من جمل الآية؟ {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ} تكتبين هذه الجملة أمام: الإحسان إلى الخلق.

وأمام الإحسان في عبادة الله، ماذا ستكتبون؟ {وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ} فقط، بينما: {وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ} مع الإحسان إلى الخلق. انتهينا من هذا.

قيمة الوفاء بالعهد، ماذا ستكتبين أمامها؟ قوله تعالى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا}، اكتبي هذه الجملة من الآية: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا} أمام قيمة الوفاء.

أمام الصّبر؟ ٣ نقاط: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ}.

القيمة الأولى: الإحسان:

الإحسان إلى الخلق:

⇐ {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ}.

⇐ {وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ}.

الإحسان في عبادة الله:

⇐ {وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ}.

القيمة الثّانية: الوفاء بالعهد: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا}.

القيمة الثّالثة: الصّبر: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ}.

وهذا سيكون تقسيما أساسيّا، وعلى ذلك فإنّ بقيّة الآيات، كلّها في هذا الجزء، ستترتّب عليها، يعني: سنمشي في الآيات ونقول: هذا من الإحسان إلى الخلق، هذا من الصّبر في البأساء، هذا من الصّبر في الضّرّاء، هذا من الصّبر حين البأس،...

يعني كلّ الجزء الّذي أمامي؛ الّذي هو إلى الآية (٢٨٣): ستعود إلى هذا التّقسيم.

ولأجل ذلك؛ **فإنّ هذه الآية تُعتبر: [آية جامعة] جمعت أصول العبادات.**

إذًا الصّبر، والوفاء بالعهد، والإحسان، هم: أوّل ثلاثة قِيَم، أو هم: أساس القيم الإسلاميّة، وكذلك تبيَّن لك: أنّ هذا الصّبر، فيه صبر في ثلاث أحوال: {فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ} وسيظهر هذا في الآيات.

مدارسة الحالة الأولى: القصاص رمز لعبادة الصّبر {حِينَ ٱلْبَأْسِ} (١٧٨_١٧٩)

سنبدأ الآن في: الصّبر {حِينَ الْبَأْسِ}: {الْبَأْسِ} يعني: القوّة، {حِينَ الْبَأْسِ} يعني: في الأحوال الّتي فيها قوّة، ليس شرطًا: القتال؛ بل **كلّ موقف تكون فيه صاحب قوّة، لابدّ أن تصير صاحب صبر؛ لأنَّ القوّة تأتي بالطّغيان** – سيتبيّن لنا إن شاء الله –.

ستقرئين فقط الآيتين: من الآية (١٧٨) إلى الآية (١٧٩):

يقول الله عزّ وجلّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

بسم الله، اتّفقنا؛ بأنَّ القيمة الأساسيّة، هي: الصّبر. وأنت تصوّري أنّ هذه الشّرائع، أتت إلى المجتمع الجاهلي؛ الآمن الآن: وقع منه الإيمان، لكن بَقِيَ في نفسه، بقايا الشّدّة، والقوّة، الّتي كانوا عليها في أخذ ثأرهم، وغير ذلك.

وأكثر مسألة، فيها صعوبة في الصّبر؛ عندما تجمع بين أمرين:

١. **بين أن تكون صاحب حقّ.**

٢. **وصاحب قوّة.**

فعندما يكون الإنسان صاحب قوّة، وصاحب حقّ، مع بعض؛ نادرًا ما يستعمل الصّبر! غالبًا أنّه يُهاجم خاصّة وأنّ عنده شعور أنَّه صاحب حقّ، وكذلك عنده قوّة؛ فإذًا يُهاجم مباشرة!

فأتت الشّريعة، وعالجت هذه المشكلة النّفسيّة الخطيرة، وهي: مسألة أخذ الثّأر، والّتي كانت سببًا خصوصًا عند العرب لطحنهم في حروب كثيرة، مثل: داحس والغبراء، وغيرها، ممّا اشتهر في تاريخ العرب.

انظروا: الآيات الآن كيف بدأت بخطابهم أنّهم: مؤمنون: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} معناها: خُوطِبَ المؤمنون، ونودوا باسم الإيمان؛ لأجل أن يُحرِّك في داخلهم الإيمان.

دعونا، نراها جملة، جملة: قسّموا معي الآية جملة، جملة:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} جاءهم خطاب للمؤمنين؛ لأنَّ الإيمان، هو الّذي يُسبِّب الامتثال للشّرائع، على قدر ما مع العبد من إيمان، على قدر ما يمتثل للشّرائع.

ولاحظوا: الكلمة الّتي أتت: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ} يعني: هذا فرض من الله؛ لأجل أن يحصل منكم الاستسلام، أنتم مؤمنون، فرض الله عليكم هذا الشّأن.

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ} ماذا؟ {الْقِصَاصُ} معنى ذلك أنّه: أنتم يا أهل المقتول؛ الّذي له حقّ الثّائرين، ويا أهل القاتل، المدافعين؛ الّذين من الممكن أن تدخلوا في حرب، حَميّة لهذا!

فالآن، أليس لنا طرفان: قاتل، ومقتول: المقتول، سيذهب أهله يُطالبون بدمه، والقاتل، أهله سيدافون عنه، وَسَيُحَامُونَ [١] له، على خطئه، وعلى جريمته.

فقيل للطّرفين: أنت مؤمن؟ وأنت مؤمن؟ فإذًا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ}، {كُتِبَ عَلَيْكُمُ}: فُرض على الجميع.

هذا القصاص، لابدّ لأهل الميّت من القناعة به، لماذا؟ لأنّهم يأتون يقولون: (فلان، هذا سيّدنا، وقد قتله عبد عندكم، ولا يكفينا أن نقتل العبد! وإنّما نقتل الحيّ كاملًا، أمام السّيّد!

فالآن، أنت زِنِيهَا[٢] بمشاعرك، بعيدًا عن الإيمان: واحد ذَا مكانة، وذَا سُلطة، قتله واحد لا يساوي شيئا، عندما نقتل هذا الفرد الّذي لا يساوي شيئًا؛ الّذي أمامنا لن يموت حُرقة مثلما حصل لنا، ولن يُقهر مثلما قُهرنا! وإنّما نريد أحدًا عندما نقتله يُساويه في مقدار القهر الّذي حصل عندنا!

---

(١) معجم المعاني الجامع _ حامى لفلان: تحزَّب له.

(٢) تصريف فعل (وَزَنَ) في الأمر مع المخاطب المؤنّث: (أَنْتِ زِنِي).

الشّريعة أتت فحسمت الأمر: أنتم يا أهل الميّت، المقتول، ماذا قيل لهم؟ {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ} القصاص هو: الحلّ: سيؤخذ الدّم من القاتل، من صاحب الدّم، لا يتعدّى ذلك، ويجب عليكم أن تقبلوا! يعني: لا تتصوّري أنّ أهل الميّت لمّا أتاهم حكم القصاص قبلوا به، لا! ما قبلوا به! لأنّهم يشعرون بأنّه لن يعوّضهم بمثل حُرقة حالهم؛ لأنّهم لم يكونوا يرسلوا أسيادهم للقتال؛ وإنّما يُرسلون عبيدهم؛ لأنّهم يُضحّون بالعبد؛ فإذَا قُتل؛ فلا بأس، وهذا في مواقف الخيانة، وليس في مواقف المواجهة.

ماذا قال الشّرع؟ هذا تحديدًا الّذي باشر عمليّة القتل، والّذي أمره: يُقام عليهم الحدّ -طبعًا على تفصيل- فهم لا يقتنعون؛ وإنّما يريدون واحدًا كبيرًا! فإذًا هذه مُناقشة هذا الطّرف الّذين هم: أهل الميّت.

تعالي نرى أهل القاتل: لو كان القاتل شريفًا عندهم؛ يقولون: (لا تقتلوه! نفديه بكذا وكذا، نفعل كذا وكذا) أنتم لا تفكّرون في القتل شبه العمد، الّذي يصير عندنا، يعني: هو لا يكون قاصدًا قتله، يتضارب معه، وبعد ذلك يقتله؛ هذا القتل شبه العمد، موقف مختلف، وفيه أحكام كثيرة وتفاصيل.

تصوّري: الشّريعة حكمت على هذا صاحب الدّم الّذي قتل بأن يُقتل، ليس فيه فداء؛ يعني: الّذي تعمّد القتل عليه القصاص.

فإذًا انتهينا من هذا.

هؤلاء أهل القاتل يُحاولون أن يخرجوا من الأمر، وأهل المقتول كذلك يُحاولون أن يخرجوا من الأمر؛ فجاء أوّل أمر: أنّه يجب عليكم أن تصبروا على حكم الشّرع، وتطفؤوا ناركم، على قدر ما شرعت الشّريعة: فماذا تفعلون؟ {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى}، وبعد ذلك حُضَّ على شأن جديد الآن:

- **أوّلًا: أعطاهم الله الحقوق.**
- **ثانيًا: حُضَّ على شأن جديد.**

ما هو الشّأن الجديد؟ {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}. لكن المهمّ أن تصوَّري: أنّ هذا الأمر كان يحتاج إلى الصّبر. ولأجل أن يصبر صاحب الدّم على القصاص الّذي أمر به الشّرع – أقصد – لكي يمتثل؛ فإنّه يحتاج إلى صبر، وهذا صبر في القوّة، في البأس، يعني: هو معه القوّة، ومعه الحقّ،

ومعه أهله، ومعه من يُناديهم، وقبيلته، والقبيلة الّتي تجاورها، والّتي تُحالفها؛ كلّهم ممكن يدخلون قتالًا لأجل هذا الدّم الّذي أُريق.

بهذا انتهينا من الآية (١٧٨)، وفي نفس الوقت في الآية (١٧٩): ذُكر للخلق، كيف أنَّ هذا الحكم فيه حياة: {وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ} لكن من يشعر بذلك؟ أولوا الألباب هم الّذين يفهمون ذلك.

الآن سننظر لفئة أخرى، فئة ما حالها؟ بعيدة تمامًا عن نَفْسِ القتل، ليسوا أهل الدّم، ولا أهل القاتل، يعني: من الخارج تنظر، وتقول: (حرام تقتلوه! هو قتل حقًّا وذهبت نفس؛ فلا نُزهق كذلك نفسًا ثانية!)!

وهذه هي الفلسفة الأساسيّة، الّتي أتى بها الطّعن على الإسلام في قتل القاتل، والّتي اقتُرحت في كثيرٍ من البلدان غير الإسلاميّة، وبعد ذلك وصلت إلى البلدان الإسلاميّة، فكرة أنّه: من عدم العقل قتل القاتل؛ لأنّ هذا معناه: أنّه عوض أن يكون المجتمع خسر نفسًا؛ فإنّه يخسر نفسين!

والجواب سهل وبسيط: أنَّه ستبقى حياتكم إذا قتلتم القاتل؛ لأنَّ هذا القاتل إذا تُرك؛ الحقيقة ماذا ستكون؟ أنَّه في أوَّل مرّة فقط ستكون عنده صعوبة في القتل ثمَّ بعد ذلك يكون كأنّه يشرب ماءً! من تمرّسه وسهولة القتل عنده! والعياذ بالله، الشّيطان يسهّله عليه.

فصارت الآية بعدها -وكأنّك تنظرين لها نظرة مُختلفة تماما- يُقصد بها: **أنّ إقامة القصاص لا يُعتبر تعدّيًا؛ وإنَّما يُعتبر جلبًا للحياة للمجتمع**. وهذا دائمًا ما يفكّر فيه البعيد عن الموقف؛ لأنّ القريب من الموقف، الّذي يُقتل له؛ نفس القصاص لا يشفيه؛ إلّا أن يصبر؛ لا يشفيه دم واحد، يعني: يتمنَّى يقهرهم كلّهم، كما قُهر في ابنه، أو سيّده، إلخ...

أمّا الآية (١٧٩): إنّما هي نظرة لمن كان خارج الموضوع.

وأنتم تصوّروا هذه المسألة: يعني: الإنسان عندما يذوق ألم الشّيء؛ يجد في نفسه حرارة؛ فيتمنّى أن يأخذ حقّه، لكن الّذي يسمعها كحكاية -يكون مثل الّذي يضع يديه في الماء البارد- يقول: (حرام! ومسكين! يمكن ما كان يقصد!)!

ولكي تتصوّروا هذا: تصوّروا مسألة بعيدة عن القتل، مسألة السّرقة، وقطع يد السّارق: الآن هذه السّرقة، لو كانت بعيدة عنك، غير عندما تكون قريبة منك -الله يحفظنا جميعًا، ويحفظ أموالنا، وبيوتنا-

لكن لو وجدتم في الصّباح بيتكم مسروقًا! وتمّت سرقة الّذي جمعتموه، والّذي خزّنتموه، من ذهب، إلخ... ما الّذي تتمنّى أنفسكم أن تفعلوه في السّارق؟ عندما تجدونه؛ تقطّعونه أجزاء! جزاء لفعله!

وأيضا، جارتكم الّتي بجانبكم، الّتي خافت على نفسها؛ فهي كذلك عندها نفس المشاعر! لأنّها أحسّت بحرارة الموقف، وشاركتكم الآلام، وكذلك هي خافت على نفسها أن يأتي عليها الدّور غدًا! فالمهمّ عندها أن يجدوه، ويأتوا به!

الآن حيّكم الّذي سمع الخبر، صار هناك خوف، ويريدون أن يأتوا بالقاتل، لكن يكفي أن تقطعوا يده!

وبعد ذلك آخر جدّة سمعت أنّ أحدًا سرق، تقول: (حرام، مسكين، يمكن كان مُحتاجًا! يمكن كان كذَا!).

فإذً مشاعرنا، على حسب الموقع الجغرافي للحدث.

الآن لو نريد أن نحكم عليه: هل نحكم بما يقول أصحاب المال أنفسهم الّذين يريدون أن يقتلوه؟! أم نحكم بما يراه الّذين يبعدون قليلًا عن الحدث، ويريدون أن يقطعوا له يده؟! أم الّذين هم بعيدون تمامًا، ويقولون: (حرام! اتركوه!)! لا! وإنّما نحكم بالشّرع.

فلذَا لا يمكن للشّرع أن يكون على مقاسات العقول! لا يمكن! فالشّرع هو الشّرع! ويحكم -سبحانه وتعالى- وهذا الحكم هو الّذي فيه الحياة، هو الّذي سيصلح حياتكم، يعني: السّرقة، ليست مثل قتل النّفس: فإنّه يُقطع العضو الّذي حصل منه الفعل -وأصلًا- عندما يعرف السّارق أنّه سيُقطع العضو الّذي حصل منه الفعل؛ فإنّه قبل أن يسرق، يفكّر ١٠٠٠ مرّة.

ولذلك: {وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ} لأنّه سيمنع عنكم الشّر. والعرب قبل أن تنزل الشّريعة؛ كانوا يقولون: (القتل أنفى للقتل!) يعني: لو قتلتم القاتل؛ فإنّ هذا ينفي وجود قتل آخر.

وأبلغ منه، وأولى في الاستشهاد، قوله تعالى: {وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ}.

إذًا معنى ذلك: أنّ الشّرع لا يُقاس بالمقاسات الإنسانيّة، ولا بالمشاعر الإنسانيّة، ولا بما يسمّونه الدّيموقراطيّة؛ لأنّ الدّيموقراطيّة إنّما هي: حكم الشّعب! رأي الشّعب الّذي لا ندري ماذا يُريد؟! رأي الشّعب الّذي فيه صغير، وكبير، فيه متأثّر بالحدث، وغير متأثّر، فيه نفس طيّبة، ونفس غير طيّبة؛ فأيّ شعب هذا الّذي سأحكم به؟!

لكن، الحكم في الشّرع، له مصالح متعدّية، لا يفهمها إلّا من نضج فكره، وصحّ منه استعمال عقله.

انتهينا من الحالة الأولى، الّتي فيها: صبر {حِينَ ٱلۡبَأۡسِ}، نرى الآن ما يتعلّق بها:

مدارسة الحالة الثّانية: الوصيّة رمز لعبادة الصّبر {حِينَ ٱلۡبَأۡسِ} (١٨٠_١٨٢)

يقول الله عزّ وجلّ: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[1]

بسم الله، هنا أيضًا صبر {حِينَ ٱلۡبَأۡسِ}، لكن أين {ٱلۡبَأۡسِ} هنا؟ أين القوّة هنا؟ هذا صاحب المال، طالما المال في يده؛ فإنّه يصبح صاحب قوّة.

والوصيّة الآن، الّتي يريد أن يكتبها صاحب المال، مالكه، حتّى لو كان هناك ضعف؛ ستُصرّف المال بعيدًا عن أهله، وأصحابه، إذا كان في نفسه شيء على هذا الّذي يوصي له، يعني: الآن المال الّذي في ملكيّته يُعتبر قوّة؛ المفترض عندما يكتب وصيّتَه تكون موافقة للشّرع؛ لأنّ المال تحت يده، وهو المسيطِر عليه، فمن الممكن أن يضرُّ ورثته؛ فيأخذ المال، ويعطي لهذا، ويعطي لهذا، ويُبقيهم بدون أيّ شيء! وهل هناك أحد يقدر أن يجادله في ماله كيف يتصرّف فيه، وهو حيّ؟ غالبًا أنّه لا يقدر! فيصير هو صاحب بأس، يعني: صاحب قوّة في تصريف المال.

حين تسألينه: (لماذا تريد أن تصرف أموالك هكذا؟)؛ يقول لك: (لقد آذوني طيلة الحياة! ما نفعوني، ما فعلوا لي، ما تركوا لي، إلخ...) نقول له: (لا تفعل وإنّما اصبر، اصبر! اصبر على حكم الله، واصبر على قدرتك في تصريف المال، واصبر ووافق الشّرع في ذلك).

الآن دعونا نرى الآية: إلى من تتوجّه؟ ومن المقصود فيها؟ لن أقرأ الآية وإنّما سأبيّن معناها:

{كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ}، يعني: إذا جاء الموت لأحدكم، من الّذي يحضر؟ من الفاعل؟ {ٱلۡمَوۡتُ}، جاء لمن؟ لأيّ أحد منكم؛ إن ترك مالًا: {خَيۡرًا}: يعني مالًا.

(١) سورة البقرة: ١٨٠ _ ١٨٢.

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ} إن كان معكم مال: {ٱلْوَصِيَّةُ}، الوصيّة لمن؟ {لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ} **هنا الآية أتت بالإجمال، ثمّ أتت آية المواريث بالتّفصيل.**

هذه {ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ} مُجملة، ثمّ أنَّ الله قدَّر وِرْثَ الوارثين في آيات المواريث بالتّفصيل، بعد أن كان مُجملًا، وبقي الحكم فيمن لم يُوَرَّثُوا من المحجوبين بالوصيّة.

فالحكم باقٍ بالوصيّة؛ ما هو الحم الباقي؟ {ٱلْوَصِيَّةُ} لمن؟ للمحجوبين، يعني: أليس هناك محجبون في كلّ حُكم؟ بلى، فهؤلاء المحجوبون الآن، هذه الآيات تقول: أوصوا لهم خيرًا.

نحن لسنا في موقف بيان الأحكام، لكن فقط لأجل أن تتصوّري المسألة: {إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ} إذَا عندك مال، وصِّ: الوالدين سيخرجون الآن من الوصيّة، وكلّ من له حكم في الميراث سيخرجون، وسيبقى له ثلث ماله يحقّ له أن يوصي، لمن توصِي أوّل شيء؟ للأقربين الّذين تعرف بأنّه حصل لهم حجب، طبعًا هذا فيه تفاصيل؛ وهذا يكون بالمعروف، يعني: العُرف الّذي بين النّاس، وهذا: {حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ}.

لماذا {ٱلْمُتَّقِينَ}؟ لأنَّه ممكن أن يكون هؤلاء الأقارب، والّذين لك بهم صلة، أن يكونوا آذوك، أوقعوا ما لا يُناسب، حتّى أنّهم ما كانوا يسألون عنك؛ فأنت من التّقوى، وممن الصّبر حين البأس، تقول: (لا! الأولى في الإنفاق: الأقرب فالأقرب).

فتأخذ مالك الّذي تعرف أنّه يحقّ لك أن تُخرجه في أيّ مكان، وفي أيّ وجه من وجوه الخير، وتبدأ بالأقرب، وتنفقه عليهم، يعني: اصبر حين البأس، اصبر حين تكون عندك سلطة.

{فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ} من هذا الّذي سيبدّله؟ الآن الكلام عن المُوصَى إليه، يعني: الّذي بصدد كتابة الوصيّة، {فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ}: فإذًا نحن عندنا حالتان هنا لمن يكون أيضًا يحتاج إلى الصّبر: هذا الّذي حضره الموت، وهذا الّذي معه، ولا يوجد أحد غيرهما؛ فيصير الّذي حضر لكتابة الوصيّة، في حال قوّة؛ لأنَّ هذا سيموت، وهذا سيتحكَّم في **١٠٠** ألف، في مليون، في **١٠** ملايين؛ فمهما كان مبلغ المال؛ فإنّه سيصير في موقف قوّة! بمعنى: أنّه لو اختلس، وأخذ، وغيّر، وبدّل في الوصيّة، هل هناك من سيقول له شيئًا؟! لن يقول له أحد شيئًا، فيحتاج إلى صبر.

فإذًا من يحتاج إلى صبر الآن؟ كلا الطرفين، سواء الموصِي، أو الموصَى إليه؛ لماذا؟ لأنّ الموصِي – نفسه– ماذا يمكن أن يفعل؟ {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ} بمعنى:

أنّه ممكن أن يحصل خطأ، أو يحصل التّعدّي من الموصَى إليه، وممكن أن يحصل التّعدّي من نفس الموصِي، يعني: يميل عن الحقّ، يمنع النّاس حقّهم، يقول كذا وكذا، مثلا: لا يوصي بالثّلث؛ وإنّما يشهّد أحدا من أولاده على البيع والشّراء، يقول: (هؤلاء أولادي الأربعة الذّكور، أنا بعت لهذا كذا، وبعت لهذا كذا)، ويأتي عند المحامي -خاصّة الآن- يكفي أن يقوم المحامي بالإجراءات القانونيّة؛ فيأتي بالمحامي ويقول له: (هذا بعته لولدي الأوّل، وهذا الثّاني، وهذا الثّالث، وهذا الرّابع)، ويبيعه؛ فلا يبقى شيئًا من الوِرْثِ، أو أن يبقى شيئًا قليلًا، ولا أحد يستطيع أن يقول له: (لا! وإنّما نُعيد التّقسيم)! لأنّه بيع وشراء!

يعني: لو الموصِي أوصَى: {جَنَفًا أَوْ إِثْمًا} في وصيّته؛ لابدّ أن يتمّ إصلاح ذلك؛ فإمّا أن تُصلح من نفس الموصَى إليه، أو أن تُصلح في المحاكم الآن، يعني: لو وضع في الوصيّة: {جَنَفًا أَوْ إِثْمًا}؛ فإنّها تُعاد إلى أصلها، وتُقسّم التّقسيم الصّحيح.

لكن المشكلة الآن: صار هناك فطنة لهذا الشّيء؛ فماذا يفعلون؟ يبيعون ويشترون؛ إذا باعوا واشتروا؛ انتهى الموضوع! لأنّ هذا بحكم البيع والشّراء، فمثلا: لو كانت عماراتٍ أو بيوتًا، أو أراضٍ؛ فإنّه يقوم بإفراغٍ سريع وانتهى الموضوع! فيخرج من ذمّة صاحب المال إلى ذمّة الأبناء مثلًا! وهذا كثيرًا ما يفعلونه حين لا يريدون من البنات أن تَرِثْنَ، أو حين تكون هناك عداوة مع أحد الأبناء.

فكلّ هذا يحتاج إلى صبر، وأنت صاحب القوّة! لأنّه في النّهاية يقول لك: (هذا مالي! هذا مالي! ولا دخل لأحد فيه!) نقول له: (لا! فإنّ هذا حُكمًا شرعيًّا، يجب عليك أن تفعله، وأن تصبر أثناء تنفيذه).

وانظروا: لأنّنا الآن في الرّخاء، ولا نملك في جيوبنا إلّا خمس ريالات؛ لهذا فنحن لسنا متحمّسون للقضيّة! لكنّها قضيّة خطيرة جدًّا، وتحتاج إلى صبر حقيقي.

فإذًا انتهينا من الصّبر حين البأس، في أوّله؛ فمازلنا لم ننتهي منه بعد.

سيأتينا الآن الكلام عن الصّيام:

مدارسة الحالة الثّالثة: الصّيام رمز لعبادة الصّبر على {ٱلضَّرَّآءِ} (١٨٣_١٨٦)

يقول الله عزّ وجلّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[1]

الآن لازلنا في الصّبر، انتهينا من الصّبر {حِينَ ٱلْبَأْسِ} وأنت قويّ، وصاحب سلطة؛ سيأتينا الآن الصّبر على {ٱلضَّرَّآءِ}.

هذه الكلمات الثّلاثة:

١) **الصّبر {حِينَ ٱلْبَأْسِ}.**

٢) **الصّبر على {ٱلْبَأْسِ}.**

٣) **الصّبر على {ٱلضَّرَّآءِ}.**

هذه الكلمات الثّلاثة، أخذناها من نفس الآية، نحن الآن حين نستعملها؛ نضعها في مكانها؛ **كلّ هذا الّذي سنتكلّم عنه الآن: عبادات، لكن في كلّ مرّة هناك نوع من الصّبر نحتاجه، ودائما نستصحب الصّبر في كلّ العبادات.**

الصّيام رمز لعبادة الصّبر على {ٱلضَّرَّآءِ}، لماذا؟ لأنَّ العبد في صيامه، يختار بإرادته أن يترك ما ينفعه من الطّعام؛ من أجل ما هو أنفع منه.

دعونا نضع هذه القاعدة؛ لأجل أن نتصوّرها في الصّيام -الله يبلّغنا رمضان بزيادة إيمان، اللّهمّ آمين-.

---

(١) سورة البقرة: ١٨٣_١٨٦.

هذه القاعدة ظاهرة جدًّا في الصّيام، لأجل أن تتصوّروا مقصد الصّيام؛ لأنّه كثيرًا ما يُتكلَّم عن مقصد الصّيام، لكن هذا المقصد الأساسي –والله أعلم– وكلّ المقاصد تتفرّع منه.

سنقول: في الصّيام يترك الإنسان، (ما يحبّ، إلى ما هو أحبّ منه)، و(ما يظهر نفعه، إلى ما هو أنفع منه)؛ ولذلك صور:

الصّورة الأولى:

من الصّور: ترك الطّعام في النّهار (وهو محبوب) (لأجل ما هو أحبّ منه) وهو: رضا الله؛ هذا في الصّيام الآن.

الصّورة الثّانية:

دعونا نرى في الصّيام نفسه: السّحور: صورة أخرى لنفس الأمر: ترك النّوم، يعني: في السّحور تكون المسألة: ترك النّوم في آخر اللّيل – يعني: إذَا أردنا أن نوافق السّنّة – (وهو محبوب) (لأجل ما هو أحبّ منه)، وهو: رضا الله.

- هنا رضا الله تمثّل في السّحور.
- وفي النّهار تمثّل رضا الله في الصّيام.

وكلّ ما في رمضان بنفس الطّريقة:

الصّورة الثّالثة:

ترك الجلوس، والاسترخاء، (وهو محبوب) في مقابل: القيام، والوقوف، (إلى ما هو أحبّ منه) وهو: رضا الله، ما هي صورته؟ القيام.

أي: كيف يُخرج الإنسان نفسه من السّرّاء، (الّتي هي: الطّعام) إلى الضّرّاء، (وهي: الجوع)؛ إلّا محبّة الله! ماذا يحتاج؟ الصّبر؛ لأجل أن يصل إلى هذا.

فإنّ رمضان إنّما هو تهيئة نفسيّة، وأدلّة من التّجارب أنّك تستطيع أن تقوّي نفسك؛ فتقدر على أن تخرج من شهواتك، فقط أعطِ نفسك قوّتها في الصّبر.

نحن بفضل الله، تَرَبَّيْنَا، ورَبَّيْنَا أولادنا على أنَّ الصّيام مقدَّس، وأنَّه لا يمكن كسره؛ فأنفسنا في نهار رمضان، لا تقدر أن تحدّثنا بالإفطار! لا تقدر! والشّيطان لا يقدِر أن يأتي من هذه الزّاوية! وإذا جرّب وجاء؛ ذهب مدحورًا! بل حين يأتي العذر الشّرعي للمرأة؛ تشعر بضيق، لأنَّها ليست صائمة، والنّاس صائمون!

فهذا كلّه دليل على: أنَّ عندك من القوّة، والقدرة، الّتي بها تحكم نفسك؛ لدرجة أنّ الشّيطان لا يستطيع أن يأتي؛ فيوسْوِس لك، في شأن من الشّئون! وأنَّ نفسك لا تأتي في هذا الشّأن، وتحدّثك بغيره، وتقول لك: (لا تقدر!) وإنّما تقول لك: (سمعًا وطاعةً).

فتصيري هنا **في الصّيام؛ حين تصبرين على الضّرّاء؛ تعرفين بأنَّك سيّدة النّفس، وليست هي سيّدتك! أنَّك أنت الّتي تحكمينها وليست هي من تحكمك! أنّ قلبك، وروحك، الّذي هو أعلى شيء فيك؛ إنّما هو السّيّد، والملك، وأمّا البدن فهو الدابَّة الّتي تُوصِلُك.**

لكن تخيّلي: وانظري كيف أنّ رمضان يُخبرك هذا عن نفسك! عندما نكون طوال السّنة وأصلًا أنت لا تكونين جائعة! لكنّك تقولين: (معي مال، وهناك أناس سيوصلون لي؛ دعونا نرى اليوم ماذا سنتعشّى؟ ماذا نأكل؟)؛ طوال الوقت، فقط: (ماذا نأكل؟! ماذا نأكل؟!) وتصير النّفس تلحّ إلحاحًا؛ تشعرين معه؛ أنَّك لا تَقْدِري على مقاومتها!

فيأتي رمضان، يقول لك: (لا! وإنّما أنت سيّدة الموقف! ولك القدرة على ذلك!) وإذا كنت في كلّ الأيام قد شعرت بضعفك؛ فإنّ رمضان يشعرُك بقوّة الصّبر، كيف تؤثّر عليك، وكيف تستطيعين أن تخرجي نفسك من ذلك.

المقصد إنَّ أكثر مشاكلنا دائرة حول هذا النّوع: أنَّنا لسنا قادرون على أن نُخرج أنفسنا من الشّهوات؛ [وكلّما اشتهينا؛ اشترينا]، يعني كلّ شيء اشتهيناه، قمنا بفعله! وكلّما قالت لنا أنفسنا: (لا أريد كذا! لا أريد كذا!) قمنا به! فقط: سمعًا وطاعةً!

دعونا نرى أنفسنا في القيام، وفي صلاة الفجر: الآن عندما يكون الإنسان، منّ الله –عزّ وجلّ– عليه، وفتح له بالقيام، وضبط السّاعة مثلًا: على السّاعة الرّابعة، ترنّ السّاعة: عندما يكون ممّن أن يقول لنفسه: (سمعًا وطاعةً!): يفتح عينيه، وأدرك الوقت؛ وبعد ذلك نفسه تقول له: (نم قليلًا! قليلًا فقط!) وهو يقول لها مباشرة: (سمعًا وطاعةً!) إلى أن يؤذن الفجر! فإذًا هؤلاء هم أهل القيام!

أمَّا أهل صلاة الفجر، الّذين يقومون على الفجر؛ حين يقولون لأنفسهم: (قليلًا!)؛ ما يقومون إلّا والنّور قد طلع، وخرج وقت الفجر! وهذا لأنّهم قالوا لأنفسهم: (سمعًا وطاعة!)! هي تقول لهم: (قليلا!) وهم يقولون لها: (سمعًا وطاعةً!) فقط: سمعًا وطاعةً! (اشرب!)! (سمعًا وطاعةً!)، (اِلْعَبْ!)! (سمعًا وطاعةً!) فقط! وليس هناك قدرة على التّحكّم! فلمّا يأتي رمضان؛ يقول: (لا! أنا قادر على التّحكّم).

طبعا المشكلة أيضا الّتي عندنا في رمضان: أنَّ القدرة على التّحكّم موجودة في النّهار؛ في اللّيل تكون القدرة على الانتقام! هذه فقط الّتي في اللّيل! نسأل الله يعطينا الصّبر، الله يعطينا الصّبر.

المقصد: **أنّ الصّبر على الضّرّاء، يعني: في الظّاهر كأنّك تَضُرّين نفسك**، لكن واقعيّا: هل ترين الأكل، ولا تأكلين؟! هل ترين الماء، وأنت عطشانة، ولا تشربين! هذا ضرر، **لكن الصّبر على الضّرّاء يرفع الإنسان عند ربّ العالمين، لو كان مقصده خيرًا**.

ولتعلموا: أنَّ الشّيطان حين يقوّي الإنسان على الشّرّ، يجعله يصبر على الضّرّاء؛ لأنّه لا تتصوّروا أنَّ أهل الشّرّ يمشون في طريق ممهّد وجميل! وأنّ الشّرّ هذا شيء جميل! لا! لا! وإنّما الشّرّ له من الضّرر ما له؛ لكنَّ الشّيطان يُفْقِد الإنسان الإحساس بالضّر الّذي يشعر به، والّذي من المتوقّع أن يحسّ به؛ وإلّا فإنّه حين يحصل من الشّرّ ما يحصل؛ فإنّ النّفس السّويّة لا تقبل الشّرّ، لكن كأنَّ الشّيطان يعطي الإنسان مخدّرًا، يحتمل به هذا الضّرّ، ساعات طويلة، لأجل أن يصل إلى الشّرّ، وكأنَّ الشّيطان يعطيه مخدّرًا؛ حتّى لا يشعر: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ} لكن أنتم {تَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ}[1] فهم يتألّمون لأجل أن يصلوا للباطل، ولكن الشّيطان يخدّرهم! ويشعرهم بأنّه: (لا! ليس هناك شيء!)!

ولذلك يأتي الإنسان يخلو بطاعة الله؛ فيشعره الشّيطان بالوحشة العظيمة؛ لكن حين يخلو لأجل أن يرتكب مُنكرًا، أو شيئًا ليس له قيمة؛ فيشعره بالأُنس، وأنَّه شيء طبيعي أن لا يجد النّاس معه!

مثلًا: يأتي الإنسان، يريد أن يحفظ القرآن، أو يريد أن يخلو لذكر الله، فيشعره بأنّك: (وحدك؟! أين النّاس؟!).

أمّا إذا أراد أن يخلو لأجل أن يقرأ كتابًا ليس له قيمة، أو يقرأ رواية؛ فيقول: (ليس مهمًّا أن يكون النّاس موجودين! ليس مهمًّا!) ويتكيّف حين لا يكون أيّ أحد معه!

(١) سورة النساء: ١٠٤.

لكن دعه يخلو لأجل أن يقرأ القرآن! فيجعله يشعر بالوحشة، يعني: وكأنّه أعطاه مخدّرًا بحيث أنّه يتحمّل الوحشة! وتكون قصّة أو رواية من ألف صفحة، يقرؤها، ولا يشعر بالتّعب! لا من القراءة، ولا أنّ رأسه تؤلمه، ولا أنّ عينيه تؤلمانه، ولا أيّ شيء! ولا أنّه يشعر بالوحشة، ولا التّعب من الجلسة، وكأنّها مخدّرات!

في مقابل؛ لو أنّه قرأ صفحتين من القرآن، وجلس وحده؛ يقول: (لا! أنا لا أستطيع أن أقرأ كلّ هذا وحدي!) بهذه الطّريقة!

وأنتم تصوّروا كلّ الصّور الّتي مثل هذه؛ كيف أنّ الشّيطان يجعل طريق الشّرّ، مع الضّرّاء الّذي في طريق الشّرّ، لكنّه كأنّه مفروش بالورود! وكيف يأتي إلى طريق الخير، ويشعره بالضّرّاء الّذي في أحيان كثيرة لا تكون حقيقة!

فأنت ماذا تحتاج تجاه هذه الحقيقة؟ الصّبر على {الضَّرَّاءِ}.

على كلّ حال، جاءت تفاصيل هنا في الصّيام، ونحن مقصدنا الدّراسة الإجماليّة، وسنأتي خصوصًا في الأحكام، ونقول: (مقصدنا فقط الدّراسة دراسة إجماليّة) يعني فقط العناوين.

فهذا هو المقصد: أن يكون لقاءنا من أجل تصوّر المفهوم الإجمالي للسّورة.

انتهت آيات الصّيام هنا، بقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} **ومناسبتها للصّيام مناسبة بديعة: فإنَّ الإنسان إذا وصل إلى حال يصبر فيه بترك ما يحبّ، إلى ما هو أحبّ، وهو: رضا الله؛ كان في حال القُرب الّذي تُجَابُ فيه الدّعوة؛ فإنّ الله {قَرِيبٌ} ممّن آثر، وقدّم محابَّ الله، على محابِّه.**

ولذلك خُتم السّياق بذلك: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}، {قَرِيبٌ} ممّن؟ ممّن آثر محابَّ الله، على نفسه، ومحابِّه.

وهذا يظهر في الصّيام، وفي القيام، والسّحور، وفي كلّ أفعال رمضان.

نسأل الله يبلّغنا رمضان بزيادة من الإيمان!

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فهرس الجزء الثّالث

اللّقاء الحادي عشر: الخميس 14 ربيع الأوّل 1440 هـ _____ ٣

اللّقاء الثّاني عشر: الخميس 11 جمادى الأوّل 1440 هـ _____ ٢٧

اللّقاء الثّالث عشر: الخميس 18 جمادى الأوّل 1440 هـ _____ ٤٥

اللّقاء الرابع عشر: الخميس 25 جمادى الأوّل 1440 هـ _____ ٦٦

اللّقاء الخامس عشر: الخميس 2 جمادى الآخر 1440 هـ _____ ٩٠